التائه

جبران خليل جبران

التائه

THE WANDERER

BY KAHLIL GIBRAN

مع مقدّمة عامة ودراسة تحليلية

بقلم الدكتور نزار بريك هنيدي

❖ التائه/ جبران خليل جبران

❖ مقدمة عامة ودراسة تحليلية: د. نزار بريك هنيدي

❖ الطبعة الأولى عام 2004 عدد النسخ 1000 نسخة

❖ حقوق الطباعة محفوظة للناشر

❖ يطلب الكتاب على العنوان التالي:

مؤسسة علاء الدين للطباعة والتوزيع

سورية دمشق ص . ب : 30598

هاتف: 5627060 – فاكس: 56113241

مدخل إلى أدب جبران

بقلم الشاعر
الدكتور نزار بريك هنيدي

بماذا يتميّز الأدب الحقيقي من غيره من الأعمال الكتابية؟ وما هي المعايير التي تتيح لنا الحكم على أدب ما بأنه أدب رفيع وعظيم؟ وإذا كان تذوق النص الأدبي مرهوناً للذائقة الشخصية التي تختلف بين متلق وآخر، كما أنها تتنوع وتتطور وتتغير بين بلد وآخر، وبين عصر وعصر، فكيف يتاح لنا أن نطلق حكم القيمة الموضوعي دون أن يكون هذا الحكم مشوباً بالكثير مما تمليه الأهواء الذاتية، أو تفرضه النزعات الفردية؟

نعرف تماماً كم قيل من كلام، وكم أريق من حبر، في المحاولات المستمرة للإجابة عن هذه الأسئلة التي تشكل أساس علم الأدب، ولب جميع النظريات النقدية، منذ أن اجترح الإنسان نصوصه الأدبية الأولى. وفي يقيني إنَّ هذه المحاولات لن تتوقف ما بقي الإنسان ينتج الأدب ويتذوَّقُهُ، أو بعبارة أخرى، ما بقي الإنسان محتفظاً بجوهره الأصيل.

وبالرغم من أن المدارس الأدبية المختلفة، قد وضعت عدداً من المعايير المتباينة لتقويم العمل الأدبي، إلا أن هذه المعايير لم تكتسب صفة الشمولية أو الثبات، بل بقيت نسبية، إذا قبلت بها طائفة من النقاد أو المتلقين، رفضتها أخرى، وإذا انطبقت على نص ما، فإنها لم تنطبق على نصوص أخرى، لا يستثنى من ذلك سوى معيار واحد، يكاد يجمع عليه الجميع، وما هذا المعيار سوى نجاح العمل الأدبي في امتحان الزمن.

فالنص الذي يتجاوز عصره الذي كُتِبَ فيه، ويبقى قادراً على بثّ المتعة الأدبية، وجذب جمهور القراء، بعد انقضاء الشروط الزمانية والمكانية التي كانت تحكم ظروف إنتاجه، هو النص العظيم بامتياز. ذلك أن الزمن هو الغربال الحقيقي والحكم الفصل في قيمةِ أدبيّةِ أي عملٍ كتابيّ.

ومما لاشكَّ فيه، إنَّ أعمال جبران خليل جبران، من هذه الأعمال التي استطاعت أن تصمد في وجه الزمن، وتنجح في امتحانه. ذلك أنها اليوم، وبعد مرور أكثر من سبعين عاماً على وفاة مبدعها، مازالت تتصدّر قوائم الكتب الأكثر مبيعاً، ومازالت دور النشر تتسابق على إعادة إصدارها بطبعات شعبية أحياناً، وطبعات فاخرة أحياناً أخرى.

كما أن أعمال جبران لم تتجاوز حدود الزمان فحسب، بل تجاوزت حدود المكان أيضاً، فهي اليوم مقروءة في جميع بقاع الأرض، بعد أن تمت ترجمتها إلى معظم لغات العالم.

واعتماداً على هذا المعيار الذي قلّما يخطئ، فإن المهمة الملقاة

اليوم على عاتق النقاد والباحثين الذين يدرسون أعمال جبران، تتخطّى مسألة إطلاق حكم القيمة عليه، إلى ما هو أهم من ذلك بكثير، وهو محاولة سبر أغوار الأدب الجبراني للوقوف على الخصائص الأصيلة التي يتميز بها، واستقراء العوامل التي جعلته قادراً على ملامسة الجوانب الأكثر عمقاً وشفافيّة في الجوهر الإنساني.

ولما كان إبداع جبران خليل جبران لا يمكن فصله عن الحياة الاستثنائية التي آثر أن يعيشها كفنان استثنائي، فلا بد لنا من وقفة قصيرة مع فصول سيرته التي كانت مصدر إلهامه في الكثير من أعماله.

سيرة جبران :

ولد جبران خليل جبران في السادس من كانون الثاني عام1883 في مدينة صغيرة تقع فوق وادي قاديشا في شمال لبنان، تدعى (بشري). ومن الطريف أن جبران الذي كان يؤمن أوثق الإيمان بالتقمّص (على حد قول ميخائيل نعيمة) ما كان يحسب ولادته في شمالي لبنان مصادفة عمياء، بل كان يعتقدها نتيجة لازمة لحياة سابقة.

ذاق جبران منذ طفولته طعم الفقر والقهر، فأبوه الذي نأى بالخمر عن شؤون الأسرة، كان يعمل في عد الأغنام والماعز في الجرود لجباية الرسوم عليها، وقد أوقف بتهمة الاختلاس، فاحتجزت أملاكه وفرضت عليه الإقامة الجبرية في مركز قريب من المحكمة، مما

اضطر والدة جبران (السيدة كاملة) أن تترك زوجها ووطنها، وتهرب بأولادها الأربعة من الذل والهوان مهاجرة بهم إلى مدينة (بوسطن) في الولايات المتحدة الأمريكية.

ووالدة جبران كانت سيدة ذكية وقوية، تركت تأثيراً بالغاً وعميقاً في حياته وشخصيته، وقد وصفها في إحدى رسائله إلى (مي زيادة) بقوله: (كانت محبوبة في محيطها، ما عهدتها في أدنى درجاتها أقل من شقيقة، و لا في أعلى درجاتها أقل من سيدة، لقد أفهمتني وأنا بعد في الثالثة، أن الرابطة بيننا هي كما بين صديقين، رابطة حب متبادل، وأننا كائنان مستقلان جمعتهما يد الحياة الشريفة، كانت أعجب كائن عرفته في حياتي).

وفي (بوسطن) بدأت الوالدة في العمل هي وابنها البكر (بطرس). أما جبران فقد ألحق بمدرسة شعبية وبدأ تعلم اللغة الإنكليزية. ولفتت موهبة جبران في الرسم انتباه إحدى معلماته التي كتبت إلى صديقها المثقف الثري (فريد هولاند داي) طالبة منه الاعتناء بجبران، وأعجب الفنان الثري بهذا الفتى الشرقي الذي يمتح رسومه من معين الطبيعة البكر، فتعهده بالتعليم والرعاية، وعَرَّفَهُ بعدد من الفنانين والأدباء، كما أسند إليه مهمة رسم أغلفة عدد من الكتب التي تنشرها دار (كويلا اند داي) ليجني منها بعض ما يسد نفقاته.

إلا أن جبران بقي يطمح إلى الدراسة في لبنان وبلغته العربية، فوفَّرَتْ له أمه ما يكفل له العودة إلى وطنه الذي وصل إليه أوائل

خريف عام 1989 ، وانتسب إلى مدرسة (الحكمة) ليدرس اللغة العربية وآدابها.

وقد روى الخوري (يوسف الحداد) وكان أستاذ البيان في المدرسة أن جبران جاءه يشكو وضعه في الصف الابتدائي رغم ما حَصَّلَهُ من معرفة باللغة الإنكليزية وإتقان لفن الرسم، فقال له الخوري (ألا تعلم أن السلّم يرقى درجة درجة)، فما كان من جبران إلا أن يردّ بقوله (بلى، ولكن هل يجهل الأستاذ أن الطائر لا ينتظر السلّم في طيرانه)، فاقشعر بدن الخوري الذي شعر أنه أمام عقلية بارزة في فتى له حكمة الشيوخ.

وفي مدرسة الحكمة نهل جبران من معين التراث العربي، فقرأ كليلة ودمنة، ونهج البلاغة، وديوان المتنبي، بالإضافة إلى التوراة والإنجيل.

أما عطلته الصيفية فكان يقضيها في بلدته (بشري) رغم أنه لم يستطع التواصل مع والده الذي كان قد انتهى إلى حالة من البؤس والفقر جعلته لا يقدّر موهبة ابنه، فوجد جبران عزاءه في الطبيعة وفي صداقته لأستاذه في مرحلة الطفولة (سليم الضاهر) وفي رعاية أحد الوجهاء الذي يدعى (طنوس الضاهر)، والذي سوف تنشأ علاقة عاطفية بين ابنته حلا وبين جبران، أعاد جبران استيحاءها بعد عشر سنوات في قصة (الأجنحة المتكسرة).

إلا أن الزمن أبى إلا أن ينغّص على جبران ما بدأ يشعر به من إلفة

واطمئنان، ففي نيسان1902 بلغه خبر وفاة أخته (سلطانة) مما اضطره إلى ترك دراسته، والعودة سريعاً إلى (بوسطن). وهناك وجد أخاه (بطرس) مصاباً بمرض السل. ثم لم تلبث أمه أيضاً أن أصيبت بالمرض،وانتابتها حالة من اليأس والقنوط، فراح جبران يكتب لها بعض الخواطر التي يمكن أن تشدّ من أزرها بالرغم من أنه هو نفسه كان في تلك الفترة شديد الاضطراب. وقد كتبت صديقته (جوزفين) في مفكرتها واصفة حالته في تلك المرحلة: (جاءني جبران بالغ التعاسة، إنني أعرف في أعماق قلبي ما يقاسي من عذاب، وإنني فخورة بهذا العبقري الذي استقوى على واقعه).

وسرعان ما قضى المرض على أخيه (بطرس)، وما هي إلا أيام معدودات حتى لحقت به أمه، فعظمت المصيبة على جبران الذي قال في وفاتها: (ما بكيت عليها لأنها أمي وحسب، بل لأنها صديقتي. لقد كانت حكيمة فوق كل حكمة. إنها أعذب ما تحدثت به الشفاه البشرية: يا أمي، تلك الكلمة الصغيرة الكبيرة والمملوءة بالأمل والحب).

ورغم أن الحب الذي جمع جبران مع الشاعرة الأمريكية (جوزفين بيبودي)، كان عزاء جبران في تلك المرحلة، إلا أن جوزفين أيضاً لم تلبث أن وضعت حدّاً لهذه العلاقة بزواجها من رجل ثري يختلف عن جبران الذي كان فقيراً وأصغر سناً منها، ولم يبق من ذلك الحب سوى ما سوف يفوح فيما بعد من صفحات كتاب (دمعة وابتسامة).

وبعد هذه الصدمات المتوالية، تفرّغ جبران لرسومه وكتاباته، فأقام معرضاً للوحاته ترك انطباعاً جيداً. وكان من بين زوّار المعرض ابنة رجل سياسي معروف، سوف يكون لها شأن هام في حياة جبران، وتدعى (ماري هاسكل). وقد بلغ إعجابها بلوحاته أن دعته إلى عرضها في المدرسة الخاصة التي تديرها. كما تعرّف في الوقت نفسه على الصحفي (أمين الغريب) الذي كان يصدر جريدة (المهاجر)، فأخذ ينشر مقالاً أسبوعياً فيها.

وأصدر جبران كتابه الأول (الموسيقا) عام 1905، وأتبعه عام 1906 بكتابه الثاني (عرائس المروج) الذي نشره له (أمين الغريب) في نيويورك، وبدأت كتابات جبران تلقى المزيد من الإعجاب بين قرّاء العربية لما تتضمنه من نكهة خاصة وأسلوب فريد.

وراحت العلاقة تتوطد بين جبران، وبين ماري هاسكل التي عرّفته على صديقة فرنسية اسمها (إملي ميتشل) وتعرف بـ (ميشلين) وهي التي سيتخذ منها جبران موديلاً لرسوماته، فتضطرم نار الحب مع خطوط ريشته ليعيش قصة حب جديدة. وربما كان لميشلين أثر في تعريف جبران بالشعر الفرنسي، وفي إذكاء رغبته في السفر إلى فرنسا التي كانت تعج بحركة فنية تنطلق منها الحركات الفنية الحديثة.

وربما كانت ميشلين نفسها هي التي أهدى إليها جبران كتابه الثالث (الأرواح المتمردة) الذي صدر عام 1908 والذي صدّره بالتقديم

التالي: (إلى الروح التي عانقت روحي، إلى القلب الذي سكب أسراره في قلبي، إلى اليد التي أوقدت شعلة عواطفي أرفع هذا الكتاب).

وما كان من ماري هاسكل أمام رغبة جبران الجامحة في السفر إلى باريس، إلا أن وافقت على إرساله على نفقتها، فسافر في تموز1908 حيث كانت ميشلين في انتظاره. ودخل جبران أكاديمية (جوليان) وتعلم أصول الرسم على يد الرسام جان بول لورنس، لأنه كان قبل ذلك يرسم معتمداً على فطرته دون أية دراسة أكاديمية، وهو ما عبر عنه بقوله (كنت في الظلام، والآن أشعر أنني أسير في الغسق نحو النور).

وخلال وجوده في باريس، لم ينقطع عن مراسلة (ماري هاسكل) بالرغم من وجود ميشلين إلى جانبه، بل إنه يقول لماري في إحدى رسائله (ميشلين الحلوة هي أم صغيرة عزيزة وطفلة صغيرة عزيزة، إنها في الواقع عون).

ولما اشتدّ به المرض آثر أن يعود إلى جانب ماري هاسكل طالباً منها الزواج، ورغم حبها لجبران وإعجابها به، إلا أنها رفضت عرض الزواج كي لا تحدّ من طموحه الإبداعي، وكان لها أن أرسلته إلى نيويورك ليتعرف على الأدباء العرب فيها وعلى رأسهم (أمين الريحاني).

وفي نيويورك عرضت لوحات جبران، وفي سنة 1912 أصدر روايته (الأجنحة المتكسرة) وأهداها (إلى التي تحدق بالشمس بأجفان جامدة، وتقبض على النار بأصابع غير مرتشعة، وتسمع نغمة الروح

الكلي من وراء ضجيج العميان وصراخهم، إلى ماري هاسكل)، وبعد سنتين صدر كتابه (دمعة وابتسامة).

وفي هذه المرحلة بدأت تلك العلاقة النادرة بينه وبين الأديبة (مي زيادة) عبر الرسائل التي لم تنقطع بينهما حتى وفاته.

ومنذ سنة 1912 بدا جبران أكثر التحاماً مع قضايا وطنه الذي يعاني وطأة الاحتلال العثماني، فكتب المقالات التي تدعو العرب إلى الاتحاد لمقاومة العثمانيين، وحين عمّت المجاعة لبنان سنة1916 كتب نصّه (مات أهلي) كما اشترك في حملة لجمع التبرعات.

وفي عام 1920 أسس جبران مع ميخائيل نعيمة وإيليا أبي ماضي وأمين الريحاني وآخرين (الرابطة القلمية) وانتخب جبران رئيساً لها. وقد أصدر عام 1919 قصيدة (المواكب) وهي القصيدة الوحيدة التي اعتمد فيها الوزن والقافية. ثم أصدر عام 1920 كتابه (العواصف)، وفي عام 1923 نشرت له مكتبة العرب في مصر كتاب (البدائع والطرائف).

وكان جبران قد أتقن اللغة الإنكليزية بفضل علاقته مع ماري هاسكل، التي استمرت في مراجعة ما يكتبه بالإنكليزية حتى بعد أن غادرت بوسطن وتزوجت. وقد أصدر جبران كتاب (المجنون) عام1918 باللغة الإنكليزية وأتبعه عام1920 بكتاب (السابق) وعام1923 صدر كتابه (النبي) الذي سرعان ما أصبح أكثر الكتب مبيعاً في الولايات المتحدة.

وفي سنة 1925 التقى مع الشاعرة الأمريكية (باربرة يونغ) التي

أصبحت سكرتيرته الخاصة، وكان قد اتجه نهائياً إلى الكتابة بالإنكليزية. فأصدر كتاب (رمل وزبد) عام 1926، وكتاب (يسوع بن الإنسان) عام 1927، و(آلهة الأرض) عام 1930، و(التائه) سنة 1931 وكتب فصولاً من كتاب (حديقة النبي) التي سوف تعمل سكرتيرته على إتمامه ونشره بعد وفاته، ففي ربيع 1931 اشتدت عليه وطأة المرض، فنقلته سكرتيرته إلى المستشفى حيث ودّع الحياة في العاشر من نيسان، وتلبية لوصيته تم نقل جثمانه إلى بلدته (بشري) حيث رقد رقدته الأخيرة.

عوامل التكوين :

شكّلت أعمال جبران خليل جبران منعطفاً جديداً في تاريخ الثقافة العربية، وعلامة فارقة في الأدب العالمي كله، وكان ذلك نتيجة لتضافر مجموعة من العوامل:

منها ما كان مركوزاً في عمق شخصيته، التي تجنح نحو مثالية طهرانية، لا تعترف بالإنسان إلا متعبداً في محراب القيم العليا من خير ومحبة وعدالة وجمال.

ومنها ما كان نتيجة للواقع الذي عاشه في طفولته في لبنان، حيث أدرك بحسه المرهف النافذ مدى الانفصام الحاصل بين فتنة الطبيعة الخلابة، وبين قسوة علاقات الحياة اليومية بين البشر، فاختار الانحياز إلى الطبيعة وسحرها، وآمن أن في الطبيعة قوى أكثر جدارة

بإضفاء المعنى على الوجود البشري، من تلك القوى المادية التي تستهلك روح الإنسان وجسده. وربما كان هذا هو السبب الحقيقي وراء اعتناقه لفكرة التقمّص منذ المراحل المبكرة من حياته. وهو السبب أيضاً وراء تلك الرومانسية الطاغية التي ترى في عالم الغاب الجنَّةَ الوعودة، حيث لا شرور ولا آثام وليس سوى المحبة والجمال، وهذا ما يفسّر ولعه الشديد بتلك (التيمة) البلاغية الأثيرة التي قلما يخلو منها نص من نصوصه، وهي تجسيد الطبيعة وموجوداتها ككائنات تفيض بالحياة.

ولا ريب في أن ما ورثه جبران من الثقافة العربية يشكّل لبنة رئيسة من لبنات المعمار الجبراني. فقد قرأ الشعر العربي والفلسفة العربية، فأعجب بابن الفارض الذي قال عنه (في شعره ما لم يحلم به الأولون ولم يبلغه المتأخرون). كما فتنته قصيدة ابن سينا في النفس التي يقول عنها: (ليس بين ما نظمه الأقدمون قصيدة أدنى إلى معتقدي، وأقرب إلى ميولي النفسية من قصيدة ابن سينا في النفس). وبعد أن يقارن بينها وبين أبيات لشكسبير وشيللي وغوته وبراونن يقرر أن (الشيخ الرئيس قد تقدم جميع هؤلاء بقرون عديدة، فوضع في قصيدة واحدة ما هبط بصور متقطعة على أفكار مختلفة في أزمنة مختلفة، وهذا ما يجعله نابغة لعصره وللعصور التي جاءت بعده).

كما يبدي إعجابه بالغزالي الذي يعتبره (أقرب إلى جواهر الأمور وأسرارها من القديس أوغوسطينوس).

إلا أن أهم ما ورثه جبران عن الثقافة العربية والشرقية هو تَمَثّلُهُ

لشخصية المخلّص أو (النبي) ولغته ومواقفه. وهو ما يعبّر عنه جبران في إحدى رسائله إلى ماري هاسكل عام1929 حيث يقول (إن الطموح الجوهري للشرقي العظيم هو أن يكون نبيّاً). غير أن الجبرانيّة (على حد تعبير أدونيس في كتابه الثابت والمتحول) هي، جوهرياً، نبوة إنسانية، ويضيف أدونيس (إن الفرق بين النبوة الإلهية والنبوة الجبرانية هي أن النبي في الأولى ينفذ إرادة الله المسبقة، الموحاة، ويعلم الناس ما أوحي له، ويقنعهم به. أما جبران، فيحاول على العكس، أن يفرض رؤياه الخاصة على الأحداث والأشياء، أي وحيه الخاص، وحين نفرغ النبوة من دلالتها الإلهية، نجد أنها الطريقة والغاية لنتاج جبران كله. فجبران يقدم مفهوماً جديداً، ضمن تراث الكتابة الأدبية العربية، للإنسان والحياة).

ولا بدّ من ذكر عامل آخر شديد الأهمية من عوامل التكوين الجبراني، يتجلى فيما نهله جبران من معين الثقافة الغربية ليتمثّله ويصهره مع المكونّات الأخرى لشخصيته وإبداعه.

وحسبنا هنا أن نشير إلى تأثّر جبران بنيتشه وكتابه (هكذا تكلم زرادشت) الذي اعتبره جبران (من أعظم ما عرفته كل العصور)، كما نشير إلى إعجابه بشكسبير وشيللي لأنهما تحررا من (ربقة الماضي)، وكذلك (وليم بليك) الذي يقول عنه: (لن يتسنى لأي امرئ أن يتفهّم بليك عن طريق العقل، فعالمه لا يمكن أن تراه إلا عين العين).

بنية الأدب الجبراني :

أمـا بنيـة الأدب الجـبراني، فتتـألف مـن مزيـج مـن العنـاصر الرومانسية والواقعية والصوفية والثورية والحداثية، التي استطاع جبران أن يؤالف بينها في توليفة سحرية، لا تتأتى إلا لمبدع كبير حقاً. فأدبه رومانسـي وواقعـي وصوفـي وثـوري وحداثـي فـي الوقـت نفسـه، وإذا كنّا سنفصل بين هذه العناصر فيما يأتي، فما ذلك إلا لغرض دراسي بحت نهدف منه إلى التدليل على وجودها. أما كيف تتجدل هـذه الخيـوط وتتفاعل فيما بينها لتتماهى في النسيج الأدبي لنصوصه، فذلك هو سرّ هذه النكهة الخاصة التي تمنح أعمال جبران فرادتها وخصوصيتها.

الرومانسية

تتجلّى (رومانسية جبران) أكثر ما تتجلّى في تمجيده للإنسان، الذي لا يراه محور الكون، ولبَّ الوجود وحسب، بل إنه يرفعه إلى مصاف الألوهية، إذ إنّ (الإنسانية روح الألوهية على الأرض) على حد تعبيره في نصه (صوت الشاعر).وهو يقول في (نشيد الإنسان): (أنا كنت منذ الأزل، وها أنا ذا، وسأكون إلى آخر الدهر، وليس لكياني انقضاء).

كما يقول في موضع آخر: (على أنني وجدت بين هذه النكبات المخيفة، والرزايا الهائلة ألوهية الإنسان واقفة كالجبّار تسخر بحماقة الأرض وغضب العناصر، ومثل عمود نور منتصبة بين خرائب بابل

ونينوى وتدمر وبمباي وسان فرانسيسكو ترتّل أنشودة الخلود قائلة: لتأخذ الأرض مالها، فلا نهاية لي).

ومن مظاهر رومانسيته أيضاً الاحتفاء بالطبيعة وتمجيد عناصرها، فهي الجنة التي ليس فيها حزن ولا ألم ولا ظلم:

ليس في الغابات حزن … لا ولا فيها الهموم

فإذا هبّ نسيم … لم تجئ معه السموم

ليس في الغابات حرّ … لا ولا العبد الذميم

إنما الأمجاد سخف … وفقاقيع تعوم

لم أجد في الغاب فرقاً … بين نفس وجسد

فالهوا ماء تهادى … والندى ماء ركد

بل ربما كان جبران قد وصل في بعض أبيات هذه القصيدة إلى كتابة أبلغ ما يطمح إليه الرومانسيون في التعبير عن تعبّدهم في محراب الطبيعة، ودعوة الناس إلى العودة إلى أحضانها:

هل تحمّمتَ بعطرٍ … وتنشّفتَ بنور

وشربت الفجر خمراً … في كؤوس من أثير

هل فَرَشْتَ العشبَ ليلاً … وتَلَحَفّتَ الفضا

زاهداً فيما سيأتي … ناسياً ما قد مضى؟

ومن تجليات رومانسيته أيضاً تغنّيه الدائم بالحزن والألم والوحدة، وولَعُهُ بمناجاة الليل والقمر والبحر والريح والضباب والسكون والصمت، وشغفه بتجسيد موجودات الطبيعة، وتشخيص العواطف البشرية، وتحويل الكثير من صفحات كتبه إلى مسارح تصول وتجول فيها الأرواح والأشباح والجنيات والساحرات. اسمعه في مقطوعته (أيها الليل) يقول: (ياليل العشاق والشعراء والمنشدين، يا ليل الأشباح والأرواح والأخيلة، يا ليل الشوق والصبابة والتذكار. أيها الجبّار الواقف بين أقزام غيوم المغرب وعرائس الفجر، المتقلّد سيف الرهبة، المتوّج بالقمر، المتّشح بثوب السكوت، الناظر بألف عين إلى أعماق الحياة، المصغي بألف أذن إلى أنّة الموت والعدم).

الواقعيّة

وتبدو (واقعيّة) جبران واضحة في قراءته المتعمّقة لأحوال الواقع، وما يعجّ به من مآس ومظالم وآلام، ومعالجته لكل ذلك في قصصه وكتاباته، مشخصاً العلّة في كل حالة، وداعياً إلى مجابهتها ومقاومتها، في سبيل تنقية العالم من الشرور والآثام، وجعله أكثر جدارة بالإنسان.

فهو يبني قصته (مرتا البانية) على مقولة أن المرأة الداعرة، قد لا تكون سوى فتاة فقيرة سحقها الظلم الاجتماعي ورمى بها الفقر والحرمان إلى الدرك الذي آلت إليه. لذلك يقول لها جبران: (إي يا مرتا، أنت زهرة مسحوقة تحت أقدام الحيوان المختبئ في الهياكل البشرية).

أما قصة (يوحنا المجنون)، فقد بناها على ما أدركه في الواقع من أن الرجال الذين يتسترون بإهاب الدين، قد لايكونون أقل وحشية وقدرة على ظلم الآخرين وسلبهم أرزاقهم وحريتهم من غيرهم من الطغاة والمجرمين.

كما ان قصة (وردة الهاني) يمكن اعتبارها المعادل الأدبي لما كان يجري ولا يزال- في الواقع، من قهر للمرأة، وإرغامها على الزواج بمن لا تحب، لا لشيء إلا لأنه القادر على دفع الثمن. أما عواطف المرأة ومشاعرها وحقها في الاختيار فهي أمور يضرب بها المجتمع عرض الحائط، مما يؤدي إلى تلك المآسي التي مازالت تتكرر حتى اليوم في مجتمعاتنا. وهكذا يمكن للقارئ أن يجد الأساس الواقعي لكل قصص جبران الأخرى، مثل صراخ القبور، ومضجع العروس، وخليل الكافر والأجنحة المتكسرة وغيرها.

وتتضح (واقعيّة) جبران أيضاً في تفاعله مع القضايا السياسية اليومية التي يعاني منها أبناء أمته الرازحين تحت نير الاستعمار التركي، فهو ما فتئ يحرّضهم على الثورة على الاحتلال، ويحذرهم من مغبة التعاون مع الحكم التركي، ويؤكد أن لاسبيل أمامهم لانتزاع حريتهم سوى بالاعتماد على الذات، وإن الاتحاد هو السلاح الأمضى في مواجهة أعدائهم.

وفي مقالته (الأمم وذواتها) يعيد الثقة بنهضة الذات العربية حين يقول (أما الذات العربية فقد تجوهرت وشعرت بكيانها

الشخصي في القرن الثالث قبل الإسلام، ولم تتمخّض بالنبي محمد حتى انتصبت كالجبّار وثارت كالعاصفة متغلبة على كل مايقف في سبيلها ، ولما بلغت العباسيين تربّعت على عرش منتصب فوق قواعد لا عداد لها أوّلها في الهند وآخرها في الأندلس، ولما بلغت عصارى نهارها وكانت الذات المغولية ، قد أخذت تنمو وتمتد من الشرق إلى الغرب كرهت الذات العربية يقظتها ، فنامت ولكن نوماً خفيفاً متقطعاً ، وقد تعود وتفيق ثانية لتبيّن ما كان خفيّاً في نفسها كما عادت الذات الرومانية في زمن النهضة الإيطالية المعروفة بالرنسانس).

وكان جبران يواكب جميع الأحداث التي تمرُّ بأمته، فعندما اعتقل الأتراك عدداً من الثوّار عام 1911 كتب عن (الانحطاطية المطلقة) للأتراك، وحين حلّت المجاعة عام1916 كتب نص (مات أهلي)، ونص (في ظلام الليل).

كما كتب نصوصاً متعددة يحضّ فيها أبناء أمته على التخلص من كل ما يعيق نهضتهم وتحررهم، كما في نص (الأضراس المسوسة)، ونص (المخدرات والمباضع) وغيرها.

الصوفيّة

أما (صوفيّة) جبران، فنلمسها في اعتناقه للنهج العرفاني الذي يعتمد الحدس والرؤيا والبصيرة للوصول إلى المعرفة. فإذا كان العقل يرى المظهر الخارجي للأشياء عبر البصر، فإنَّ القلب يرى بالبصيرة

جوهرها الأصل، ويفهم أعمق أعماقها. يقول جبران: (تلك الرؤيا، تلك البصيرة، ذلك التفهم الخاص للأشياء الذي هو أعمق من الأعماق وأعلى من الأعالي).

ولايمكن للمرء أن يصبح رائياً حقيقياً إلا بعد أن يتخطى جدران الحاضر، ويزيل البراقع التي يسدلها الواقع على وجهه، كما أزال (المجنون) في كتاب جبران البراقع، فالتهبت نفسه بمحبة الشمس. يقول جبران (ولما فَصَلَتْ تصوّراتي بيني وبين البشريّات وأزاحت تخيّلاتي برقع المادة عن ذاتي المعنوية شعرت بنمو روحي يقرّبني من الطبيعة ويبيّن لي غوامض أسرارها ويفهمني لغة مبتدعاتها).

ومن مظاهر (صوفيته) أيضاً إيمانه بوحدة الوجود، فما الإنسان إلا بضعة من الذات الإلهية. يقول جبران على لسان علي الحسيني في (عرائس المروج): (شعر بأنّ جوهر نفسه لم يكن غير شطر من شعلة متقدة فصلها الله عن ذاته قبيل انقضاء الدهر). فالله فصل شعلة من ذاته، ومن هذه الشعلة كان جوهر النفس البشرية. كما يقول في كتابه(دمعة وابتسامة): وفصل إله الآلهة عن ذاته نفساً وابتدع فيها جمالاً..وابتسم إله الآلهة وبكى وشعر بمحبة لا حدَّ لها ولا مدى وجمع بين الإنسان ونفسه). والإنسان هو كلمة الله، كما يقول في كتابه(رمل وزبد): (تكلم الله، فكانت كلمته الأولى إنساناً). وإن أحلام الإنسان وعواطفه ما هي إلا جزء من الروح الكلي الخالد، كما جاء في قوله: (ولكن الأجيال التي تمرّ، وتسحق أعمال الإنسان لا تفني

أحلامه، ولا تضعف عواطفه.. فالأحلام والعواطف تبقى ببقاء الروح الكلي الخالد، وقد تتوارى حيناً وتهجع آونة متشبّهة بالشمس عند مجيء الليل، وبالقمر عند مجيء الصباح). وعندما يصف بطله (يوحنا) في (عرائس المروج) يقول: (ويوحنا يتألم مع الإله الإنسان بالجسد، ويتمجّد معه بالروح).

ولئن كانت غاية الصوفي أن يترفّع عن رغد الحاضر وكدره في سبيل تحقيق غايته الأسمى، وهي الاقتراب من جوار الذات الإلهية، فإن جبران يقول في (المواكب):

فإن ترفَّعتَ عن رغدٍ وعن كَدَرٍ   جاورتَ ظلَّ الذي حارَتْ به الفكرُ

كما يقول في موضع آخر(ليس الجهاد في الطبيعة سوى شوق عدم النظام إلى النظام)، ويقيناً فإن هذه العبارة تبدو، وكأنها خارجة من أحد كتب المتصوفة الكبار.

الثوريّة

وربما كانت (الثوريّة) هي السمة الأكثر نصاعة من سمات الأدب الجبراني. فجبران ثائر متمرّد لا يرى للحياة معنى إن لم تكن نضالاً دؤوباً في سبيل الحرية. فالحريّة وحدها هي التي تحقّق إنسانية الإنسان. لذلك نسمعه يتضرع في محرابها: (من أعماق هذه الأعماق نناديك أيتها الحرية فاسمعينا. من جوانب هذه الظلمة نرفع أكفنا نحوك فانظرينا وعلى هذه الثلوج نسجد أمامك فارحمينا) ويقول في

موضع آخر: (أحببت الحرية فكانت محبتي تنمو بنمو معرفتي عبودية الناس للجور والهون، وتتسع باتساع إدراكي خضوعهم للأصنام المخيفة التي نحتتها الأجيال المظلمة، ونصّبتها الجهالة المستمرة).

و لأن جبران ثائر حقيقي، فقد كان لا بدَّ له من أن يحرّض على الثورة على كل ما يستلب الحرية، أو ينتقص منها، وعلى كل من يمارس الاضطهاد والاستغلال، ويبث الآثام والشرور، ويعيق ممارسة الإنسان لحقه الطبيعي في التمتع بالخير والعدل والجمال.

ولذلك يعلن جبران ثورته على الحكّام والأمراء ورجال الدين والإقطاعيين والأغنياء الذين يتحالفون فيما بينهم ضد جماهير الفقراء والمستضعفين، وهو يرى في تحالفهم الأسود هذا (علّة مزمنة قابضة بأظفارها على عنق الجامعة البشرية).

يقول جبران: (ابن الشرف الموروث يبني قصره من أجساد الفقراء الضعفاء، والكاهن يقيم الهيكل على قبور المؤمنين المستسلمين. الأمير يقبض على ذراعيّ الفلاح المسكين والكاهن يمدّ يديه إلى جيبه. الحاكم ينظر إلى أبناء الحقول عابساً والمطران يلتفت نحوهم مبتسماً، وبين عبوسة النمر وابتسامة الذئب يفنى القطيع. الحاكم يدّعي تمثيل الشريعة والكاهن يدّعي تمثيل الدين، وبين الاثنين تفنى الأجساد، وتضمحلّ الأرواح).

ولم يكن جبران مجرّد مصلح اجتماعي، بل كان ثوريّاً حقيقياً ومتمرّداً أصيلاً. لذلك امتدّت ثورته لتشمل كل ما من شأنه الحد من

حرية الإنسان مهما بلغ من قدسية أو رسوخ. فوجد أن أسس الظلم الاجتماعي تكمن في استغلال الشريعة لتبرير السيطرة على جموع الشعب، لذلك قال (الشريعة، وما هي الشريعة؟ مَن رآها نازلة مع نور الشمس من أعماق السماء؟ وأي بشري رأى قلب الله، فعلم مشيئته في البشر؟ وفي أي جيل من الأجيال سار الملائكة بين الناس قائلين: احرموا الضعفاء نور الحياة، وافنوا الساقطين بحدّ السيف، ودوسوا الخطاة بأقدام من حديد؟).

كما ثار على العادات والتقاليد، ورأى أن التمسك بموروث الماضي البالي ما هو إلا موت حقيقي. يقول جبران: (ان بليّة الأبناء في هبات الآباء، ومن لا يحرم نفسه من عطايا آبائه وأجداده يظل عبد الأموات حتى يصير من الأموات) كما يقول: (وأغرب ما لقيت من أنواع العبوديات، وأشكالها العبودية العمياء، وهي التي توثق حاضر الناس بماضي آبائهم، وتنيخ نفوسهم أمام تقاليد جدودهم، وتجعلهم أجساداً جديدة لأرواح عتيقة، وقبوراً مكلسة لعظام بالية).

وتتجلى ثوريّة جبران في مواقفه السياسية، ولاسيما في دعوته أبناء أمته إلى الثورة من أجل التحرر من النير العثماني. فهو يقول في رسالة له إلى ماري هاسكل عام1911 بعد أن بلغته أخبار من سورية بوجود من يدعو إلى التعاون مع الحكم التركي: (أحاول أن أبشّر السوريين الذين يعتمدون على الحكم الجديد في تركيا، بأن يعتمدوا على الذات.. أريدهم أن يعرفوا أن عرش السلطان الجبار مبني على رمل رطب. لماذا يركعون أمام صنم ملوث مادام أمامهم فضاء لا حدَّ له).

وحين عقد مؤتمر باريس لبحث قضيّة الحكم الذاتي في سورية، وكان من المقرّر حضور جبران هذا المؤتمر كمندوب عن السوريين في أمريكا، رفض الحضور، لأن وجهة نظره كانت رفض الدبلوماسية التي لن تؤدي إلا إلى وضع سورية، والبلاد العربية تحت حماية أجنبية جديدة. ويؤكد جبران أن ليس أمام العرب سوى أن يعلنوا الثورة، فبالثورة وحدها يمكن لهم أن ينتصروا.

وفي معالجة جبران للعلل التي تعاني منها الأمة كان يرفض أيضاً أي منهج إصلاحي فهو يقول: (في فم الأمة السورية أضراس بالية سوداء قذرة ذات رائحة كريهة، وقد حاول أطباؤنا تطهيرها وحشوها بالميناء، وإلباس خارجها رقوق الذهب، ولكنها لاتشفى، ولن تشفى بغير الاستئصال).

وحين قامت الثورة السوفياتية الاشتراكية أعلن فرحه، وقال في رسالة إلى (ماري هاسكل) سنة1917: (إن الذات العتيقة للجنس البشري آخذة في الموت السريع، والذات الجديدة آخذة بالانبثاق كجبّار فتي). وقال (وجميع القياصرة، وجميع الأباطرة في العالم كله لن يستطيعوا أن يجعلوا الزمن يمشي إلى الخلف).

الحداثة

أما حداثة جبران فلا تقتصر على ما قام به من هدم لأفكار الماضي البالية، التي تكبّل الإنسان وتعيق تقدمه وتطوره، ومن زعزعة

للأسس التي يقوم عليها الاستغلال والاضطهاد ، ومن تبشير برؤيا جديدة يصبح فيها الإنسان سيّد مصيره، وسيّد الطبيعة من حوله، رؤيا تقوم على الحريّة والحب والعدل والجمال. بل إن أية نظرة إلى الإنجاز الجبراني تبقى ناقصة إذا لم تدرك أنه كان إيذاناً بثورة الحداثة التي سوف تنقل الكتابة العربية من حال إلى حال، أو كما يقول (أدونيس): (تبقى أهمية جبران الأولى في أنه سلك طريقاً لم تعرفها الكتابة العربية.. فلم تعد الكتابة العربية، بدءاً منه، تتأمل ذاتها في المرايا اللفظية، بل أصبحت تنغمس في العذاب والبحث، والتطلع، ومن هنا امتلأت بالحيوية..). ولذلك يعتبره أدونيس (مؤسساً لرؤيا الحداثة، ورائداً أوّل في التعبير عنها).

تقوم حداثة جبران على رفضه للمفهوم التقليدي للشعر، فالشاعر ليس من يستخدم الكلام العادي، ويصبّه في قالب مسبق الصنع ليصف مظاهر الأشياء. وهو ليس من يلمُّ المعاني المطروحة على قارعة الطريق ليتخيّر لها الألفاظ المناسبة، ويجوّد في سبكها، ويقيم لها وزنها. بل الشاعر هو من يرى ما وراء الأشياء، ويغوص إلى الأعماق. هو من (يغمض عينيه عن الدنيا ليرى ما وراء الدنيا، ويغلق أذنيه عن ضجة الأرض ليسمع أغاني اللانهاية) حسب وصف جبران لابن الفارض.

والشعر هو قول ما لا يمكن للغة الكلام العادية أن تقوله، وهو ما يعبّر عنه جبران في العبارة التالية: (في أعماق نفسي أغنية لا ترتضي الألفاظ ثوباً. أغنية تقطن حبّة قلبي، فلا تريد أن تسيل مع الحبر على

الورق). فلغة الكلام العادية لا يمكن أن تصلح للتعبير عما يحسّه الشاعر ويراه. لذلك لا بدّ لكل شاعر من أن يخلق لغته الخاصة به، وهو ما أدركه جبران فقال: (ففي العربية خلقت لغة جديدة داخل لغة قديمة، كانت قد وصلت حدّاً بالغاً من الكمال. لم أبتدع مفردات جديدة بالطبع، بل تعابير جديدة واستعمالات جديدة لعناصر اللغة).

وكما أن لغة الكلام العادية لا تصلح للشعر، فكذلك لا يوجد شكل محدد يمكن له أن يحتوي ما يفجّره الشعر من كشوف ورؤى. فمجال الشعر هو: (الشيء الآخر الأبعد في الإنسان، الشيء الذي لا نفهمه، والذي نسعى لأن نجد شكلاً يعبّر عنه، ولم نجده حتى الآن). حسب تعبيره.

وهكذا كان لا بدّ لجبران من أن يسخر من هؤلاء الذين يعتمدون القوالب الجاهزة والصيغ القديمة: (لو تخيّل الخليل أن الأوزان التي نظم عقودها، وأحكم أوصالها ستصير مقياساً لفضلات القرائح، وخيوطاً تعلق عليها أصداف الأفكار لنثر تلك العقود، وفصم عرى تلك الأوصال).

بل إنه يسخر حتى من هؤلاء الذين يحاولون تقليد عمالقة الشعر العربي والنسج على منوالهم، لأنهم بذلك يفتقدون أصالة التعبير عن ذواتهم، ولا ينتجون سوى نسخة ثانية باهتة لانضرة فيها ولا حياة: (ولو تنبّأ المتنبي، وافترض الفارض أن ما كتباه سيصبح مورداً لأفكار عقيمة ومقوداً لرؤوس مشاهير يومنا لهرقا المحابر في محاجر النسيان، وحطّما الأقلام بأيدي الإهمال).

ذلك أن المقلّد لا يكتشف شيئاً، ولا يختلق أمراً، فهو ذاك الذي يسير من مكان إلى مكان على الطريق التي سار عليها ألف قافلة وقافلة على حد تعبير جبران، الذي يقول أيضاً (فإذا كان الشاعر أبا اللغة وأمها، فالمقلد ناسج كفنها وحافر قبرها).

وكان جبران يعي أن ثورته الحداثية على الأشكال القديمة والصيغ الجاهزة والأوزان الموروثة تهدم لكي تبني، وكان يدرك أنه لا بدّ للمجددين من امتلاك مواهب جبارة لإنجاز حداثتهم: (أما الآن فأنا أريد الأشياء الجبارة التي تدمّر كيما تبني بناءً نبيلاً).

وأخيراً، هل استطاع جبران أن ينجز فيما كتبه من نصوص إبداعية بناء جميع أركان الصرح الحداثي الذي بشّر به؟ بالطبع لا. فتلك مهمة منوطة بحركة الحداثة العربية برمتها، التي مازالت تعمل على إنجازها حتى اليوم. ألم يقل هو نفسه: (جئت لأقول كلمة وسأقولها، وإذا أرجعني الموت قبل أن ألفظها يقولها الغد.. والذي أقوله الآن بلسان واحد يقوله الآتي بألسنة عديدة).

وحسب جبران أنه كان برقاً مبكّراً من البروق التي أضاءت فضاء الأدب العربي المعاصر، وأضرمت فيه نار الحداثة والإبداع.

د. نزار بريك هنيدي

التائه

دراسة تحليليّة

جبران

والقصة القصيرة جداً

بـالرغم مـن أن كتـاب (التائـه) قـد صـدر باللغـة الانكليزيـة عـام1932، أي بعد وفـاة جـبران، إلا أن المـرء يمكـن لـه أن يعيـد زمـن كتابة النصوص التي يتضمنها إلى المرحلة التـي سبقت كتابة مؤلفاته الأخـيرة (النبـي) و(يسـوع ابـن الإنسـان) و(آلهـة الأرض). ذلـك أن هـذه النصـوص تبـدو شـديدة الشـبه ، مـن حيـث الشـكل والمضمـون معـاً ، بنصـوص كتـابي (المجنـون) والسـابق) الذيـن صـدرا فـي عـامي (1918) و(1920) على التوالي. بل إن شخصيّة (التائه) التي ابتدعها جـبران ليروي على لسانها القصص والحكايات التي يضمها هذا الكتاب، ما هي في

الحقيقة غير تجسيد آخر لكل من شخصيتي (السابق) و(المجنون). وهو ما يمكن أن نتبيّنه من مراجعة الأوصاف التي يسبغها جبران عليه في الكتاب. فالتائه رجل معدم لا يملك سوى ثوبه وعكازه، تعلو محيّاه مسحة ألم عميق. وهو رجل يكتنفه الغموض، ويهيمن الصمت في سريرته. وقد كابد الكثير من المرارات في أيامه، وتحمّل الكثير من المشقة. وكان أيضاً مثل التائه الآخر الذي يتحدث عنه في الصفحة الأخيرة، على بعض الجنون، يجوب الأرض مع الأفاقين، ويبدع أفكاراً أسمى وأكثر انطلاقاً من الناس، الذين لا يستطيعون أن يروا منه غير آثار أقدامه في حقولهم المنفتحة، و ما الحكايات التي يتضمنها الكتاب سوى أثر من غبار طريقه.

وفي الحقيقة، فقد لا حظ كثير من الباحثين أن نصوص كتاب (التائه) لم تضف شيئاً مهمّاً إلى فحوى الأدب الجبراني. فقد رأت (بربارة يونغ) فيه عودة للسخرية التي وقعت عليها أبصارنا في المجنون.. ففي كثير من حكاياته لذع ينمّ عن تبرم بسخافات العالم وبلاهته. كما رأى الدكتور (خليل حاوي) أن التائه بكل ما فيه من أقوال وأمثال على اختلافها، يكاد ألا يزيد شيئاً على ما قد عبّر جبران عنه في المجنون سابقاً. [1] بل إن الدكتورة (نازك سابا يارد) أشارت إلى أن معظم قصص (التائه) أقل طرافة وعمقاً وتكثيفاً من أمثال (المجنون)، وهي لم

---

[1]- خليل حاوي-جبران خليل جبران إطاره الحضاري وشخصيته وآثاره-دار العلم للملايين-بيروت1982-صفحة263

تضف جديداً إلى ما جاء في مؤلفات جبران السابقة [2].

على كل حال، فإن نصوص هذا الكتاب، تتيح للقارئ أن يقف على المعالم الرئيسة لرؤيا جبران وفلسفته في الحياة والوجود. وهي المعالم التي سنحاول استقراءها فيما يلي:

تشكل فكرة (وحدة الوجود) الأساس الذي يقوم عليه بنيان الفكر الجبراني. وقد تجلت هذه الفكرة بأشكال مختلفة في عدد من نصوص الكتاب .فما الانسان سوى قطرة من الأوقيانوس الكبير الذي يمثّل الوجود بأسره . و الانسان هو الشيء الذي لا نهاية لصغره، ولا نهاية لكبره، معاً. ولذلك يقول النبي للغلام في نص (النبي والغلام) أن مربيته في السماء، حيث الأصل الذي جاء منه، وسوف يعود إلى هذا الأصل مثل الجدول الذي قال له النهر : (تعال! تعال!إننا ذاهبون إلى البحر، تعال! تعال، ولا تقل بعد شيئاً. كن الآن معي. نحن ذاهبون إلى البحر. تعال إليّ، فإنك تنسى إذ تلجني كل جولاتك التائهة، حزينة كانت أم سارة. تعال وادخل. ادخل. فأنا وأنت سننسى جميع طرقنا عندما نبلغ قلب أبينا البحر) .

ولا شكّ أن المقبوس السابق يؤكد مفهوم (الذات العظمى) الذي يشكّل بدوره واحداً من أهم أركان الفكر الجبراني. فالغاية الأسمى لوجود الإنسان، أن يسعى خلال دورات حياته المتعاقبة إلى تطهير ذاته

---

[2]– نازك يارد- مقدمتها لكتاب التائه مؤسسة بحسون-بيروت1993-صفحة27.

وإغنائها وصولاً إلى تحقيق ذاته العظمى التي تمكنه من العودة إلى الالتحام بأصلها في الذات الإلهية، الذات الخالدة الشاملة التي يرمز إليها جبران دائماً بالبحر الذي يعود إليه كل شيء.

وفي إطار وحدة الوجود، تزول المتناقضات بين الأشياء وتتوحد الأضداد، فيجلس السرور والحزن معاً على ضفة البحيرة ، ويكون الوفاق بينهما تاماً حول جميع الأشياء التي يعرفانها، إلى درجة أن الصياد الثاني يقول عنهما: ليس هناك إلا شخص واحد أستطيع أن أتبينه، وانعكاس صورته في البحيرة واحد أيضاً. كما يزول التناقض بين الإنسان وغيره من الموجودات، فيدرك الرجل أن جذوره تشبه جذور الشجرة في انتمائها إلى التراب الأحمر ذاته الذي يمنحها القوة لتهبه من ثمرها.

وكما رأينا في مؤلفات جبران السابقة، فإن إيمانه بوحدة الوجود، ومفهومه عن الذات العظمى، يرتبطان ارتباطاً بنيوياً بعقيدة (التقمّص). فليس الموت نهاية الإنسان، بل الينبوع المتجدد للصبا والشباب والحياة الجديدة. وهو ما عناه الغريب حين قال للفيلسوفين: إن أحدكما يبحث عن عين الصبا، والآخر يبحث عن سر الموت، وهما في الحقيقة شيء واحد، وهذا الشيء نفسه يقيم فيكما معاً . ولهذا السبب نفسه فإن الأميرة التي تجاوزت السبعين من العمر، تقول للشاعر الشاب في اللحظة التي تلقت بها الأرض آخر أنفاسها: (يا حبيبي! يا ولدي الحبيب! يا شاعري الشاب. ربما كان لنا أن نلتقي بعد مرة ثانية.

ولكنني لن أكون عندئذ في السبعين.). أما الشاعر في نص (الفأرة والهر) فيقول في سره : إن لنا على وجه التأكيد تسع حيوات، تسع حيوات على وجه التأكيد. وعلينا أن نموت تسع مرات. تسع مرات علينا أن نموت.

وانسجاماً مع دعوة جبران إلى وحدة الأديان، التي سبق وأطلقها في نصوص متعددة سابقة، ولا سيما في نصه الهام (إرم ذات العماد) [3]، فإنه يؤكد في نص (الله والآلهة العديدة) أن الجدال والنزاع بين الأديان والعقائد المختلفة لا علاقة له بالجوهر الحقيقي للدين. ولذلك يسخر جبران من رجال الدين، كما سبق وسخر منهم في كتبه الأولى، ولاسيما (عرائس المروج) و(الأرواح المتمردة)، فنرى الأسقف المسيحي الذي يؤكد للمرأة غير المسيحية أن ليس ثمة من خلاص إلا لأولئك الذين تعمدوا بالماء والروح، نراه وقد انقضّت عليه صاعقة من السماء وتركته وقد احترق وقضى طعماً للنار، بينما نجت المرأة التي كان قد أغلق في وجهها باب الخلاص.

وعلى عهده السابق أيضاً، يشنّ جبران الهجوم على القوانين والشرائع، فالملك الحكيم لم يجد في القوانين الألف التي سنّها حكماؤه سوى ألف شكل للجريمة. وإذا كان جبران قد رسم الملك في هذا النص حكيماً، فإنه في نص (بناة الجسور) يسخر من الملوك الذين

---

[3]- جبران-البدائع والطرائف-مؤسسة علاء الدين-دمشق-2002صفحة138

ينسبون كل المنجزات إلى أنفسهم مثل الملك الانطاكي الذي أمر ببناء جسر على نهر العاصي ، وعندما اكتمل بناؤه نقش على أحد أعمدته (بنى هذا الجسر الملك أنطوخيوس الثاني) فقال بغل للآخر وهو يضحك: (ألا تتذكر أننا حملنا تلك الأحجار؟ ومع ذلك لا يزال هناك من يقول حتى الآن إن الملك أنطوخيوس هو الذي بنى الجسر.)

وبالأسلوب الساخر نفسه، ينتقد جبران القيم الزائفة التي جاءت بها (المدنية الحديثة)، ويعرّي إنجازاتها المزعومة التي لم تعمل إلا على استلاب أصالة الإنسان وحريته. فحتى الكلاب الثلاثة الذين راحوا يشيدون بما حققته لهم المدنية الحديثة، أدركوا المصير الذي ينتظرهم، فوثبوا على غير هدى في الشارع، بينما كان احدهم يصرخ فيهم (اركضوا بالله، من اجل حياتكم. المدنية تتعقبنا)!

وتتبع نقمة جبران على المدنية الحديثة، في الدرجة الأولى، من تنكّرها لأحلام الإنسان وأفكاره وأغنياته، وتحويلها العلاقات الانسانية إلى وقائع ماديّة حسّية مجردّة. فالرجل الذي قال لحبيبته برومانسية شفافة : (أنا أحبك. أنت فكرة جميلة، بل أنت شيء تسامى عن أن تناله يد. أنت أغنية في حلمي) سوف يتعرض إلى صدمة عنيفة من المرأة التي أدارت وجهها عنه وانفتلت غاضبة وقالت: (أرجوك أيها السيد أن تفارقني منذ اللحظة، فأنا لست فكرة، ولا شيئاً يطوف بك في أحلامك. أنا امرأة وأود أن تشتاق إلي، أن تشتهيني، أنا زوجة وأم لأطفال لم يولدوا بعد) . أما زوج المرأة الشابة الصمّاء، فلن يفهم من

بكاء زوجته، سوى أنها ترغب في الحصول على سلعة من السلع الجميلة التي تجلبها القوافل التجارية، فيتناول حفنة من الذهب، ويلقي بها في حضنها.

وفي ظلّ هذه المدنية، ذات القيم المادية الاستهلاكية، يملأ الناس فراغ نفوسهم بالضجيج. ويلهثون وراء القيمة الماديّة للأشياء، لا وراء حقيقتها وجوهرها. لذلك يشيحون بوجوههم عن أطباق الرمان حين يقدمها لهم صاحب البستان لقاء لاشيء، لكنهم يتدفقون على شرائها عندما يعلن عن بيعها لهم بثمن أغلى من أثمان سائر الرمان!. كما يطغى الزيف على العلاقات الاجتماعية، وتخلو الحياة من العواطف، فتقول الأميرة الزائرة لمضيفتها : (واهاً لي ولزوجي فإننا لا ننطوي على أي عاطفة، سوى أن كلاً منا يتحمّل الآخر بصبر صامت) . وفي هذا المناخ ، لا بد أن تضيع الحقيقة، فيلبس القبح لباس الجمال، ويلبس الجمال لباس القبح. ويصبح القائلون بالحقيقة مكروهين من الناس، مثلما كره الرجل ذلك المطران الذي كشف له حقيقة هدايا الأمير الثلاث.

ولا شكّ أن موقف جبران من (المدنيّة الحديثة) في هذا الكتاب، يعيد إلى الأذهان موقفه الذي أعلنه على لسان بطله (يوسف الفخري) في كتاب (العواصف) الذي صدر باللغة العربية عام 1920، حيث يقول: (نعم باطلة هي المدنيّة وباطل كل شيء فيها. فما الاختراعات والاكتشافات سوى ألاعيب يتسلى بها العقل وهو في حالة الملل

والضجر، وما تقصير المسافات وتمهيد الجبال والأودية والتغلب على البحار والفضاء غير أثمار غشّاشة مملوءة بالدخان لا ترضي العين ولا تغذّي القلب ولا ترفع النفس.) [4]

ولا يخفى أن هذا الموقف ، يمثّل ملمحاً من الملامح الرومانسيّة التي ما فتئت تظهر في أدب جبران حتى أعماله الأخيرة. ومن هذه الملامح أيضاً تمجيده للألم على غرار الشعراء الرومانسيين. فالألم الذي تحمله المحارة في داخلها، إنما هو لؤلؤة ذات جمال لا حدّ له. ويظهر تقديسه للفن والجمال، حين يقول في نص (الصولجان) أنه سوف يأتي يوم ينسى فيه الملك، وتنسى به الملكة، أما الصولجان فسيحفظ كرائعة فنيّة من جيل لجيل. كما يؤكد في نص (المبادلة)، أن أشياء الوجود بغير الشعر لن تكون سوى رمل جاف. أما الشاعر فهو الذي يمتلك العالم كغيمة متحركة في قلبه.

من الواضح إذن، أن جبران في هذا الكتاب، قد أعاد صياغة الأفكار والمقولات التي سبق له وطرحها في كتبه السابقة. ويبقى علينا أن ننظر في البنية الفنية لنصوص الكتاب، في محاولة لتلمس الأسس والملامح التي أسبغت عليها صفتها الأدبية، وأعطتها خصوصيّتها التي مكّنتها من حمل كل تلك المفاهيم والرؤى، وجعلتها صالحة للقراءة والتذوّق حتى يومنا هذا.

---

[4]- جبران-العواصف-مؤسسة علاء الدين-دمشق-2002-صفحة159

وأول ما نلحظه في هذه النصوص، قصرها الشديد. فبعضها يتألف من ثلاثة سطور أو أربعة فقط، مثل نصوص (أحلام)و (التراب الأحمر) و(حب وبغض). وأغلبها يتراوح بين ستة سطور و خمسة عشر سطراً، مثل نصوص: (ملابس) و (أغنية حب) و(دموع وضحكات) و(في السوق) و(وميض البرق) و(الأميرتان) و(الراهب والوحوش) و(اللؤلؤة) و(جسد وروح) و(على الرمل) وغيرها. أما أطول هذه النصوص، فهو نص (الملك) الذي يبلغ زهاء خمسين سطراً.

ويعتمد بناء جميع نصوص الكتاب على (القصصية). بمعنى أنها وإن كانت موضوعة من أجل توصيل فكرة أو قول رأي أو صياغة حكمة، فإنها لا تقول ذلك بطريقة الوعظ المباشر أو المقالة أو الخاطرة، وإنما يقوم كل نص منها على بنية قصصية ذات حدث محوري يتم بين شخصيات قد تكون بشرية، مثل أبطال نصوص (أغنية الحب) و(في السوق) و(الأميرتان) و(وميض البرق) و(النبي والغلام) و(جسد وروح) و(الملك) و(الهدايا الثلاث) وغيرها. وقد تكون شخصيات القصة من الحيوانات على طريقة حكايات كليلة ودمنة، مثل نصوص : (النسر والقبّرة) و(دموع وضحكات) و(اللؤلؤة) و(السلم والحرب) و(الضفادع) و(البدر الكامل) وغيرها. كما قد تكون هذه الشخصيات من النباتات وغيرها من الموجودات أيضاً مثل نصوص: (التراب الأحمر) و(السلم بعدي) و(الظل) و(النهر) وغيرها. وفي عدد من النصوص الأخرى يلجأ جبران إلى تجسيد أو (تشخيص) بعض المفاهيم

المعنوية وجعلها تتحرك وتتحدث وتتصارع لتلعب دورها كشخصيات في القصة التي يبني عليها النص، كما فعل بالجمال والقبح في نص (ملابس) حين رسمهما كشابين يتلاقيان على شاطئ البحر ويتحدثان ويرتدي كل منهما ملابس الآخر. وكما فعل أيضاً بالسرور والحزن حين جسدهما كرجلين يجلسان على مقربة من المياه المطمئنة ويتطارحان الأحاديث في نص عنوانه: (الصيادان).

ولا بدّ من ملاحظة خصيصة أخرى من خصائص هذه النصوص، تتجلى فيما يمكن لنا أن نسمّيه: (وحدة الموضوع والغرض). فكل نص مبني في الأصل من أجل توصيل فكرة أو مقولة واحدة ومحددة، وجميع عناصر النص موظفة توظيفاً دقيقاً من أجل أن تلعب دورها اللازم في تهيئة النص لقول هذه الفكرة دون أية إضافات يمكن لها أن تحجبها أو أن تتداخل معها أو تشوّش عليها. وهذه الفكرة هي التي يقولها النص صراحة في نهايته، أو تواجه القارئ كنتيجة حتمية تقتضيها سيرورة النص ، بحدثه وشخصياته ولغته. فغرض نص (الملابس) مثلاً هو القول : (ان هناك نفراً ممّن يتفرسون في وجه الجمال، ويعرفونه رغم ثيابه. وثمة نفر يعرفون وجه القبح، والثوب الذي يلبسه لا يخفيه عن أعينهم) . وغرض نص (على الرمل) أن الإنسان ماهو سوى قطرة من الأوقيانوس الكبير الذي يمثّل الوجود أو الذات الخالدة الشاملة). وغرض نص (السلم والحرب) أن يحذرنا جبران من (المدنيّة التي تتعقّبنا) وغرض نص (المسألة) أن يقول: (إن عين الصبا وسر الموت

هما في الحقيقة شيء واحد). وهكذا.

ولا شكّ أن وحدة الموضوع والغرض، تستلزم خصيصة أخرى شديدة الأهمية من الخصائص التي يمكن لنا ملاحظتها في هذه النصوص، تتجلى في (الاقتصاد والتكثيف). فجبران في هذه النصوص يعمد إلى تكثيف عناصر القصة إلى الحد الذي يكفي لأداء الغرض منها. فهو يقتصد كثيراً في رسم الشخصيات، فلا يسهب في وصفها وإنما يقتصر على الصفة اللازمة لبناء الحدث. فيقول عن أمير مدينة (شواكيس) مثلاً أنه محبوب من الناس كلهم، ليظهر المفارقة الكامنة مع عدم حب زوجته له. ويصف الراهب بأنه نقي الروح أبيض القلب ليبرر لنا إصغاء الوحوش والطيور لحديثه عن الحب مع أنه يعيش في الحقيقة دون رفيقة حياة تمنحه الحب والإلفة. وفي نص (جسد وروح) لا نعرف من صفات الرجل سوى ما تقوله المرأة له من أنه جميل وغني وعلى جانب كبير من الجاذبية، وما ذلك إلا لأن هذه الصفات تمثل رؤية المرأة له لأنها لا ترى فيه سوى صفاته الجسدية المادية. ومع ذلك فإن غالبية النصوص تكاد تخلو من أي وصف لأبطالها الذين يقدمهم جبران مباشرة ككائنات مطلقة غير معرّفة لا تحمل صفات خاصة تميزها من غيرها. كأن يقول: قال رجل لآخر، أونظم شاعر مرة أغنية حب،أو قالت شجرة، أو رأى رجل حلماً في نومه، أو لقي مسافر على طريق آزاد رجلا.. وهكذا.

وبالإضافة إلى الاقتصاد في رسم ملامح الشخصيات، فإن

التكثيف يشمل الحدث نفسه أيضاً. فيبدو جبران غير معني بالتفاصيل والشروح التي تمهّد للحبكة أو العقدة، كما هو مألوف في القصص العادية، وإنما يضعنا في هذه النصوص مباشرة في قلب الحدث الذي يوصل إلى استنتاج غرض النص. ففي نص (وميض البرق) مثلاُ، لا يحدثنا جبران عن المرأة ولا عن خطاياها التي جعلتها تقرر اللجوء إلى الكنيسة لطلب الخلاص بالرغم من كونها غير مسيحية ، كما لا يحدثنا عن الأسقف ومدى إيمانه و إخلاصه أو أهليته لمنح الطمأنينة للآخرين، ولكنه يقدم لنا الحدث في ذروته التي تتمثّل بانقضاض الصاعقة من السماء على الكنيسة في الوقت الذي كان الأسقف فيه يؤكد للمرأة أن ليس ثمة من خلاص إلا لأولئك الذين تعمدوا بالماء والروح. لأن ذلك يكفي ليجعلنا نرى الأسقف يحترق بينما تحصل المرأة على الخلاص، وهو ما يجسّد المقولة التي أراد جبران توصيلها لنا من خلال هذا النص.

ويبدو جبران غير مهتم بعنصري الزمان والمكان، فهو يتركهما مطلقين وغير محددين ، ولا يطلق عليهما من الصفات إلا ما هو ضروري لإقامة الحدث، كأن يقول:ذات يوم عاصف، أوفي يوم من أيام الصيف،أو كان في مدينة بشري مرة أمير،أو لقي مسافر على طريق زا آد رجلاً. ولا شك أن ذلك يخدم هدف جبران في التأكيد على الطبيعة العامة والمطلقة لأفكاره ومقولاته التي لا ترتبط بزمان ومكان .

ولا يقتصر التكثيف على الاقتصاد في عناصر القصة

فحسب، بل يتجلى أساساً في تكثيف لغة السرد نفسها، التي تبدو ألفاظها مختارة بعناية، وموظفة توظيفاً دقيقاً لتوصيل المعنى بأسهل وأقصر السبل. لذلك تخلو لغة النصوص من أية كلمة زائدة، أو عبارة مجانية. مما يعطي النسيج اللغوي متانة وقوة تزيد من تركيز المتلقي على البؤرة المركزية للنص.

وإذا حاولنا البحث في التقنيات التي استخدمها جبران في بناء نصوصه في هذا الكتاب، سنجد أنه استطاع توظيف عدد من التقنيات الفنيّة بخبرة وبراعة لا تتأتيان إلا لكاتب يدرك تماماً أبعاد عمله الإبداعي. ومن هذه التقنيات لجوئه إلى تجسيم المفارقة، إذ يجعل الجمال يرتدي ملابس القبح، والقبح يرتدي ملابس الجمال. كما يستخدم المفارقة بطريقة أخرى ليظهر التناقض الحاد بين رؤيتين مختلفتين للحياة والحب حين يجعل الرجل يقول: (أنا أحبك، أنت فكرة جميلة، بل أنت شيء تسامى عن أن تناله بد،) في الوقت الذي تقول فيه المرأة: (أنا أحبك، أنت جميل وغني..أنا امرأة وأودّ أن تشتاق إلي وأن تشتهيني. أنا زوجة وأم لأطفال لم يولدوا بعد).

ومن التقنيات الأخرى التي يعتمدها جبران في هذه النصوص، توظيفه للرمز. ولكنه هنا الرمز الشفيف الذي لا يضرب ستاراً من الضباب أو الغموض حول المعنى الأصل، بل يزيده وضوحاً ويعمّق من دلالاته. فحين يقول السرطان للمحارة : (ولكن الألم الذي تحمله جارتك في داخلها، إنما هو لؤلؤة ذات جمال لا حدّ له) فإنه يستخدم

اللؤلـؤة كـرمــز للسـموّ والمجـد والجمــال، ليجـدّد صياغتـه للفكــرة الرومانسـية التـي سـبق لـه وطرحـها فــي كتاباتـه السـابقة حـول تمجيـد الألم، لأنه طريق للمعرفة والتطهّر والوصول إلـى تحقيـق الـذات العظمـى. ففـي كتابـه (رمـل وزبـد) مثـلاً يقـول: (للرجـل العظيـم قلبـان: قلـب يتــألم وقلب يتأمل.) ويقول: (الألم هـو الـذي يحـول حبّـة الرمـل إلـى درّة صافيـة) كمـا يقـول: (إن الألـم العظيـم مثلـه مثـل الفـرح العظيـم، هـو الـذي يظـهر الحـق الكـامن فـي النفـس البشـرية) [5] كمـا يسـتخدم جـبران تقنيــة (التنـاص) لبنـاء بعـض نصوصـه مثـل نـص (دمـوع وضحكـات). إذ يوظـف المثلَـين المعروفـين عـن (دمـوع التماسـيح) و(ضحـك الضبـع) ليظـهر خطـأ الانجرار وراء المقولات الجاهزة الشـائعة التـي غالبـاً مـا تعمـل علـى طمـس الحقيقـة. ويلجـأ جـبران أيضـاً إلـى تقنيـات أخـرى مثـل (أنسـنة وتجسـيد المفاهيم المعنوية) ومحاكـاة قصص(كليلة ودمنـة) و(حكايـات إيسـوب) في توظيف الحيوانات كـأبطـال لقصصـه، لمـا يقدّمـه هـذا التوظيـف مـن قدرة على الإيحاء بالمعنى وسلاسة ومتعة في تلقيه.

وإذا كـان بعض الدارسـين يعتـبرون (السـخرية) تقنيـة مـن تقنيـات الكـتابـة القصصيـة، فـإن جـبران يبـدو مولعـاً بـها ومـاهـراً فـي أدائـها. ولا تقتصـر السـخرية عنـده علـى إعـلان موقفـه مـن الملـوك أو رجـال الديـن أو الفلاسـفة أو غـيرهم، وإنمــا تتعـدى ذلـك لتشـمل طريقتـه فــي رسـم

---

[5]- جبران-رمل وزبد-مؤسسة علاء الدين-دمشق-2003-صفحة45

الشخصيات، وبناء الحدث، وصياغة الحوار، وإظهار المفارقات، واستخدام اللغة، مما يجعل السخرية تتضح من غالبية نصوص هذا الكتاب.

وفي الحقيقة، فإن تأمل خصائص البناء الفني ،والتقنيات الأسلوبية التي استخدمها جبران في نصوص كتاب (التائه)، وفي عدد من نصوصه القصصية القصيرة الأخرى المبثوثة في كتبه السابقة، ولاسيّما في (المجنون) و(السابق) و(دمعة وابتسامة) و(العواصف) وغيرها، تجعلنا نتوقف قليلاً لنجري مقارنة بينها، وبين الخصائص والتقنيات التي تميّز (القصة القصيرة جداُ) عند أصحاب هذا المصطلح الذي شاع الترويج له في هذه الأيام. ذلك إن هذه المقارنة ستقودنا إلى إدراك أن هذا المصطلح لا ينطبق على شيء قدر انطباقه على نصوص جبران هذه. ولذلك يطيب لي أن أدعو المهتميّن بهذا المصطلح، والذين يجهدون أنفسهم للتأريخ لبدايات ظهور ال(ق.ق.ج) دون أن تسعفهم ذاكرتهم أو ثقافتهم بالعودة إلى ما قبل عقد السبعينات من القرن العشرين، والذين يجشّمون أنفسهم عناء خوض المعارك لإثبات ريادتهم في هذا المجال، أدعوهم جميعهم إلى إعادة قراءة جبران خليل جبران من جديد!.

د. نزار بريك هنيدي

دمشق2003/9/24

جبران خليل جبران

الأعمال الكاملة (12)

التائه

THE WANDERER
BY KAHLIL GIBRAN

(1932)

تعريب

عبد اللطيف شرارة

التائه

لقيته على مفترق الطرق، وكان رجلاً معدماً لا يملك سوى ثوبه وعكّازه، تعلو محيّاه مسحة ألم عميق. وحيّا كلٌّ منا الآخر، وقلت له: تعال إلى منزلي وكن ضيفي

وقبل الدعوة..

واستقبلتنا زوجتي مع أولادي على عتبة البيت، فابتسم لهم ورحّبوا من جانبهم بمقدمه.

ثم جلسنا جميعاً إلى المائدة، وكنّا في غبطةٍ من لقاء هذا الرجل الذي يكتنفه الغموض، ويهيمن الصمت في سريرته.

واجتمعنا بعد العشاء حول النار. ورحت أسأله عن جوَلانه.

وقصّ علينا أكثر من قصّة في تلك الليلة، وفي اليوم الذي تلاه. غير أنّ ما أرويه الآن، إنّما هو زبدة ما كابد في أيّامه من مرارة. وإن كان هو نفسه أثناء سرده لطيفاً. قريباً من القلب. وهذه الحكايات أثر من غبار طريقه. وبعضٌ من نتاج المشقة التي كابدها وتحملها.

وعندما تركنا، بعد ثلاثة أيام، لم نشعر أن ضيفاً رحل عنّا، بل واحداً منّا لا يزال خارج المنزل في الحديقة، ولمّا يدخل.

ملابس

تلاقى الجمال والقبح ذات يوم على شاطئ البحر. فقال كل منهما للآخر: هل لك أن تسبح؟

ثم خلعا ملابسهما، وخاضا العباب. وبعد برهة عاد القبح إلى الشاطئ وارتدى ثياب الجمال، ومضى في سبيله.

وجاء الجمال أيضاً من البحر، ولم يجد لباسه، وخجل أن يكون عارياً، ولذلك لبس رداء القبح، ومضى في سبيله.

ومنذ ذلك اليوم، والرجال والنساء يخطئون كلما تلاقوا في معرفة بعضهم البعض.

غير أن هنالك نفراً ممن يتفرسون في وجه الجمال، ويعرفونه رغم ثيابه. وثمة نفر يعرفون وجه القبح، والثوب الذي يلبسه لا يخفيه عن أعينهم.

النسر والقبرة

تلاقى نسر وقبّرة على صخرة فوق ربوة عالية. قالت القبّرة: طاب صباحك أيها السيد ، فنظر إليها النسر من عل، وقال بصوت خافت: طاب صباحك

وقالت القبرة: أرجو أن يكون كل شيء على ما تروم، أيها السيد أجابها النسر: أجل كل شيء على ما نروم. ولكن ألا تعلمين أنني ملك الطيور، وأنه لا يجوز لك أن تخاطبينا قبل أن نبدأكِ بالكلام؟

قالت القبّرة: يلوح لي أنّنا من الأسرة نفسها

نظر إليها النسر بازدراء وقال: من هو هذا الذي قال إني وإياك من أسرة واحدة؟

أجابت القبّرة: ولكني أودّ أن أذكرك بهذا الأمر، وهو أن في مستطاعي أن أطير في العلاء كما تعلو، وفي مستطاعي أن أغني وأدخل الفرح على قلوب المخلوقات الأخرى من أبناء الأرض، ولا تملك أنت أن تقدم لها فرحاً ولا متعة

عند ذاك غضب النسر وقال: فرح ومتعة! أنت أيتها المخلوقة الصغيرة المدعية! إني لقادر على تحطيمك بنقرةٍ واحدةٍ من منقاري، وما أنتِ إلا بحجم قدمي

فما كان من القبرة إلا أن ارتمت على ظهر النسر وأخذت تنقر ريشه. وأحسّ النسر بضيق وانزعاج، وطار بقوة وارتفع ما استطاع الارتفاع وقد أضمر أن يُلقي القبرة عن ظهره، ولكنه أخفق في ذلك. وأخيراً انطرح على الصخرة العالية ذاتها التي طار عنها، وهو أشد ما يكون غيظاً وحنقاً، ولم تفارق القبرة الصغيرة ظهره، وراح يلعن تلك الساعة وما قُدّر له فيها.

واقتربت منه في تلك اللحظة سلحفاة صغيرة، واستغرقت في الضحك من المنظر، واستمرت تضحك حتى استلقت على ظهرها.

ونظر النسر من عليائه إلى السلحفاة وقال: أنتِ أيتها المخلوقة البطيئة الحدباء، اللاصقة أبداً بالأرض! ممّ تضحكين؟

أجابت السلحفاة: ذاك أني أراك تحوّلت إلى حصان، وقد ركبك طير صغير، غير أن الطير الصغير هو الأحسن

فقال لها النسر: انصرفي لشأنك. إنها قضية أسرة، بيني وبين أختي القبرة، ولا دخل لغريب فيها

أغنية الحب

نظم شاعر مرةً أغنية حبّ، وكانت رائعة. وكتب عدة نسخ عنها وأرسلها إلى أصدقائه ومعارفه من الرجال والنساء على السواء، ولم ينس أن يرسلها حتى إلى امرأة شابة لم يسبق له أن شاهدها سوى مرةٍ واحدة، وكانت هذه تقيم وراء الجبال.

وجاءه رسول من قبل تلك الشابة، بعد يوم أو يومين، يحمل رسالة تقول له فيها: دعني أؤكد لك أنني تأثرت تأثراً عميقاً بأغنية الحب التي نظمتها لي. تعال الآن، وقابل والدي ووالدتي، وسنتخذ التدابير التي تقتضيها الخِطبة

وكتب الشاعر جواب الرسالة، وقال لها فيه: لم تكن يا صديقتي سوى أغنية حب صدرت عن قلب شاعر، يغنيها كل رجلٍ لكل امرأة

وكتبت إليه ثانية تقول: أيها الكاذب الخبيث في كلماتك! سأقيم منذ اليوم إلى ساعة أجلي، على كراهية الشعراء جميعهم بسببك!

دموع وضحكات

لقيت ضبع تمساحاً في العشية، على شاطئ النيل، واستوقف كلٌّ منهما الآخر وتبادلا التحية.

تكلمت الضبع وقالت: كيف قضيت يومك، يا سيد؟ أجابها التمساح قائلاً: قضيته على أسوأ حال، وإني لأبكي أحياناً في أساي وعنائي، والكائنات من حولي تقول دائماً: ليست هذه سوى دموع التمساح وهذا يجرحني إلى حد لا سبيل لوصفه

قالت له الضبع عند ذاك: تتحدث عن أساك وعنائك، ولكن فكر فيّ أيضاً، ولو للحظة. إني لأحدق إلى جمال العالم، وغرائبه ومعجزات بدائعه، وأضحك مستبشرة عن فرحٍ خالصٍ يفعم نفسي، كما النهار يضحك، غير أنّ أهل الأدغال يقولون: ليس هذا سوى ضحك الضبع

في السوق

جاءت مرة فتاةٌ من الريف إلى السوق، وكانت آية في الملاحة والظرف، يتوزع محياها الورد والزنبق، وشعرها بلون الغروب، والفجر يبتسم على شفتيها.

ولم تكد هذه المخلوقة الساحرة، الغريبة، تظهر، حتى أحدق بها الشبان ينشدون التعرف إليها والتقرب منها. هذا يود أن يراقصها. وذاك يريد أن يقسم الكعك على شرفها، وكلهم يبتغون تقبيل خدها. ألم يكن ذلك سوقاً، بعد كل حساب؟

غير أن الفتاة أحست بصدمة وأصابها ذعر وامتعاض، وحسبت السوء في سلوك الشبان، فزجرتهم، وبلغ بها الغيظ أن صفعت واحداً أو اثنين منهم، على وجهه، ثم انصرفت في سبيلها لا تلوي على أحد.

وفيما هي تتجه عند المساء نحو بيتها الريفي، قالت في سرها: إني لأشعر باشمئزاز، ما أقل أدب أولئك الرجال، وأحطّ أخلاقهم. هذا شيء لا يطاق، ولا يمكن الصبر عليه

وانقضى عام كانت الفتاة الجميلة تفكر خلاله كثيراً

بالأسواق والرجال، ثم قدمت مرة ثانية إلى السوق ومحياها ورد وزنبق، وشعرها بلون الغروب والفجر على شفتيها يبتسم.

إلا أن الشبان كانوا ينظرون إليها، ويميلون عنها، وقضت نهارها ذاك وهي وحيدة، مبعدة، لا يتقرب منها أحد. ولدى العشية عادت إلى منزلها وهي تصيح في سرها: ما أقل أدب أولئك الشبان! إني لأشعر باشمئزاز لا يطاق، ولا يمكن الصبر عليه

الأميرتان

كان في مدينة شواكيس أمير يحبه الناس كلهم من رجال ونساء وأولاد. وحتى بهائم الحقل كانت تألفه وتقبل عليه تحييه وتأنس بحضوره.

غير أن جميع الناس كانوا يقولون إن زوجته الأميرة لا تحبه، ويغلو بعضهم فيحسب أنها تكرهه.

وذات يوم، جاءت أميرة إحدى المدن المجاورة، تزور أمير شواكيس، وجلستا تتحدثان، وساقهما الحديث إلى ذكر زوجيهما.

قالت أميرة شواكيس بحرارة وتحمس: إني لأحسدك على سعادتك مع الأمير زوجك، وإن كانت قد مرت أعوام طوال على زواجكما. أما أنا فإني أمقت زوجي. إنه ليس لي وحدي، وأنا في الحقيقة أتعس امرأة

حدقت إليها الأميرة الزائرة وقالت: الحقيقة يا صديقتي هي أنك تحبين زوجك. نعم! لا تزال لديك عاطفة جامحة نحوه لم تطلقيها بعد، وتلك في المرأة حياة كينبوع في بستان، ولكن واهاً لي ولزوجي فإننا لا ننطوي على أي عاطفة، سوى أن كلا منا يتحمل الآخر بصبر صامت. وأنتِ، وغيرك من الناس، تحسبون ذلك سعادة!

وميض البرق

كان ذات يوم عاصف، أسقف مسيحي في كنيسته الكبرى، وجاءته امرأة غير مسيحية، ووقفت أمامه، وقالت: لست مسيحية. هل لي أن أخلص من نار الجحيم؟

حملق الأسقف في المرأة، وأجاب: لا! ليس ثمة من خلاص إلا لأولئك الذين تعمدوا بالماء والروح

وفيما هو يتكلم انقضت من السماء صاعقة على الكنيسة الكبرى، ودوى الرعد ، واندلعت النار في الكنيسة وملأت أرجاءها.

وأقبل رجال المدينة مسرعين وخلّصوا المرأة، ولكن الأسقف كان قد احترق، وقضى طعماً للنار.

الراهب والوحوش

كان راهب يعيش مرّةً وسط الروابي الخضر، وكان نقي الروح، أبيض القلب، وكانت جميع بهائم البر وطيور الجوّ تأتيه أزواجاً، فيكلمها وهي تصغي إليه مسرورة مستبشرة، وبودها أن تتقرب منه، وأن تبقى حتى مغرب الشمس معه، ولكنه كان يصرفها عنه، ويتركها للريح والغابات بعد أن يلقي عليها بركته.

وفيما كان يتكلم ذات أصيلٍ عن الحب، رفعت فهدةٌ رأسها وقالت للراهب: تكلّمنا عن الحب. حدَثنا أيها السيد عن رفيقة حياتك، أين هي؟

قال الراهب: ليس لي رفيقة حياة

وارتفعت عند ذاك صيحة دهشة كبرى من جمهرة الوحوش والطيور. وراحوا يتهامسون فيما بينهم: كيف يستطيع أن يحدثنا حديث الألفة والحب، في وقتٍ لا يعرف به شيئاً عنهما؟ وانسلّ جمعهم بهدوء، وتركوه وحيداً، وهم له مزدرون.

وانطرح الراهب عشية ذلك النهار على حصيرته، وعيناه في الأرض، وبكى بكاء مراً، وضرب بيديه على صدره.

النبي والغلام

لقي النبيّ شاريا ذات يوم غلاماً في حديقة، ومذْ بصر به هذا، أسرع إليه وقال: طاب صباحك يا سيد! وردّ النبيّ تحيته: طاب صباحك يا سيد! وتابع الكلام بعد قليل: أراك وحيداً

أجابه الغلام، ضاحكاً فرحاً: مضى عليّ وقت طويل وأنا ضائع عن مربيتي، وهي تحسب أني وراء هذه الوشائع[1]. ولكن ألا ترى أنني هنا؟ ثم حدّق إلى وجه النبي وقال: أنت أيضاً وحيد. ماذا فعلت مع مربيتك؟

وردّ النبيّ قائلاً: ها! الأمر بيننا مختلف. الحقيقة الدامغة أنني لا أستطيع أن أضيعها أغلب الأحيان. ولكني الآن، إذ أتيت هذه الحديقة، كانت هي تسعى في طلبي وراء الوشائع

ضرب الغلام يداً بيد وصاح: أنت إذن ضائع مثلي، أليس حسناً أن يكون الإنسان ضائعاً؟ ثم قال: من أنت؟

أجابه الرجل يدعونني النبيّ شاريا وأنت؟ قل لي من أنت؟

---

[1] الوشائع: جمع وشيعة، وهي حظيرة الشجر حول الكرم والبستان.

قال الغلام: أنا ذاتي وحدها. ومربيتي تبحث عني، وهي لا تعرف أين أنا

وحدّق النبي إلى الفضاء قائلاً: أنا أيضاً تهرّبت من مربيتي لبرهة، ولكنها ستعثر عليّ خارجاً

وقال الغلام: وأنا أعرف أن مربيّتي ستجدني خارجاً أيضاً

وسُمِعَ في تلك اللحظة صوت امرأة تنادي الغلام باسمه، فقال هذا: أنظر! قلت لك إنّها ستجدني

وفي تلك اللحظة أيضاً سُمِع صوت آخر يقول: أين أنت يا شاريا؟

وقال النبيّ: انظر يا ولدي! لقد وجدوني أيضاً.

وأدار شاريا وجهه للعلاء، وأجاب: أنا هنا.

اللؤلؤة

قالت محارة لمحارةٍ تجاورها: إنّ بي ألماً جدّ عظيم في داخلي. إنّه ثقيل ومستدير، وأنا معه في بلاء وعناء

وردت المحارة الأخرى بانشراح فيه استعلاء: الحمد للسماوات والبحار. لا أشعر في سرّي بأي ألم. أنا بخيرٍ وعافية داخلاً وخارجاً

ومرّ في تلك اللحظة سرطان مائي، وسمع المحارتين وهما تتساقطان الحديث، وقال للتي هي بخير وعافية داخلاً وخارجاً: نعم! أنت بخير وعافية. ولكن الألم الذي تحمله جارتك في داخلها، إنما هو لؤلؤة ذات جمالٍ لا حدّ له

جسد وروح

جلس رجل وامرأة بجانب شباك يطلّ على الربيع، وكانت جلستهما تجعلهما جدّ متقاربين، فقالت المرأة: أنا أحبك. أنت جميل، وغني، وأنت أبداً ودائماً على جانب كبيرٍ من الجاذبية

وقال الرجل: وأنا أحبك. أنت فكرة جميلة، بل أنت شيء تسامى عن أن تناله يد. أنت أغنية في حلمي!

غير أن المرأة أدارت وجهها عنه وانفتلت غاضبةً وقالت: أرجوك أيها السيد أن تفارقني منذ اللحظة، فأنا لست فكرة، ولا شيئاً يطوف بك في أحلامك. أنا امرأة وأودّ أن تشتاق إليّ، أن تشتهيني. أنا زوجة وأمّ لأطفال لم يولدوا بعد

وافترقا..

وقال الرجل في سرّه: ها هو ذا حلم آخر تبدّد منذ الآن، وتحوّل إلى ضباب

وقالت المرأة، وهي تتأمّل وحيدة: ما لي ولرجل يحوّلني إلى ضباب وحلم؟

الملك

أحاط شعب مملكة صادق بقصر الملك، وراحت الجماهير تصرخ ثائرة عليه، فنزل هذا من علياء قصره، وقد حمل تاجه بيد، وصولجانه باليد الأخرى، واستحوذ على الجماهير حين أبصرته صمتٌ مهيبٌ وقور، ووقف أمامهم وقال: أيها الأصدقاء! لستم بعد الآن رعاياي فها أنا أتخلى عن تاجي وصولجاني لكم، وبودي أن أكون واحداً منكم. لست سوى رجلٍ عاديّ، غير أني أودّ كرجل، أن أعمل معكم، ونجهد جميعاً في أن يكون حظنا أوفى وأجمل وأحسن. لا حاجة إلى ملك! فلنذهب إذن إلى الحقول والكروم ونشتغل يداً بيد. كلّ ما أريد منكم أن تدلوني على الحقل أو الكرم الذي ينبغي لي أن أذهب إليه، فكل واحد منكم الآن ملك !

وعجب الناس، وخيّم عليهم الهدوء، فالملك الذي حسبوه مصدر بلائهم، تخلّى الآن عن تاجه وصولجانه وسلمهما لهم، وأصبح كأيّ واحدٍ منهم.

ثم ذهب كل منهم في سبيله، ومشى الملك مع أحدهم إلى بعض الحقول.

إلا أن مملكة صادق لم تسر أحسن مما كانت، وعادت سحب السخط والاستياء تتلبّد وتتراكم في آفاقها وعلى أرضها، وعاد الناس يصرخون بأعلى أصواتهم في الساحات العامة، أنهم يريدون من يحكم بينهم ويدير أمورهم، وصاح الشيب والشبان قائلين بصوتٍ واحد: نريد ملكنا!

وبحثوا عن الملك فوجدوه يكدح في الحقل، وأتوا به إلى مكانه، وسلّموه تاجه وصولجانه، وقالوا: الآن احكمنا بعزمٍ وعدل.

قال: سأحكمكم في الحقيقة بعزم، وأدعو آلهة السماء والأرض أن تعينني على أن أحكمكم أيضاً بعدل

ثم جاءه رجال ونساء كلموه في شأن والٍ أساء معاملتهم، واتخذ منهم عبيداً، وما كان ينظر إليهم إلا على أنهم عبيد، فأمر الملك رأساً بإحضار الوالي، حتى إذا مثل بين يديه قال له: إنّ حياة إنسان في موازين الله تعادل حياة أي إنسان غيره. وما دمت لا تعرف كيف تزنُ حيوات هؤلاء الذين يعملون في حقولك وكرومك، فقد نفيتك وعليك أن تترك هذه المملكة إلى الأبد

وفي اليوم التالي جاءت الملك جماعة أخرى وكلمته في شأن أميرة قاسية القلب تقيم وراء التلال، وحدثته عن البؤس الذي نشرته في البلاد، فجيء فوراً بالأميرة، وحكم عليها الملك أيضاً بالنفي قائلاً: إنّ هؤلاء الذين يحرثون حقولنا ويبذلون العناية بكرومنا أشرف منا نحن الذين نأكل الخبز الذي يصنعون، ونشرب الخمرة التي يعصرون. وما

دمتِ لا تعرفين ذلك، فإنّ عليك أن تتركي هذه الأرض وتبتعدي عن هذه المملكة.

ثم جاءه رجال ونسوة أخبروه أن الأسقف يرغمهم على حمل الحجارة ونحتها لإقامة الكنيسة، ثم لا يعطيهم شيئاً على عملهم هذا، وهم يعرفون أن خزائن الأسقف ملأى بالذهب والفضة، ويبيتون مع ذلك على الجوع لا يجدون ما يقتاتون به.

ونُودي على الأسقف، وحين مثل بين يدي الملك قال له: هذا الصليب الذي تحمله على صدرك، إنّما يعني إعطاء حياة لقاء حياة. ولكن أنت أخذت حياةً من حياةٍ دون أن تعطي شيئاً. ولذا، عليك أن تترك هذه المملكة، وأن لا تعود أبداً.

وهكذا، مرّ شهر بأكمله على الملك، وكل يوم يأتيه فيه رجال ونساء يخبرونه عن الأعباء التي ألقيت على كواهلهم، وكان كل يوم يمر من ذلك الشهر، يشهد ظالماً أو أكثر ينفى من البلاد.

وعجب شعب صادق، وامتلأت القلوب غبطة وفرحاً.

وذات يوم أقبل الشيب والشبان وأحاطوا ببرج الملك ونادوه فأتاهم وهو يحمل تاجه بيد، وصولجانه بيد.

ثم خاطبهم قائلاً: والآن ماذا تريدون مني؟ ها أنا أعيد إليكم الأشياء التي رغبتم إليّ في حملها.

ولكنهم صاحوا: لا! لا! أنت ملكنا الصالح، العادل. لقد جعلت

أرضنا نظيفة من الأفاعي، ورددتها خلواً من الذئاب، ونحن جئنا نترنم بحمدك والثناء عليك. التاج لك في جلال، والصولجان لك في مجد.

أجاب الملك عندئذٍ قائلاً: لا لست أنا! لست أنا ! أنتم أنفسكم الملك. فأنتم حين قدرتم بي الضعف وسوء الحكم، كنتم أنفسكم ضعافاً سيئي الأحكام. والآن إنما تسير البلاد سيرها الحسن، لأن تلك هي مشيئتكم. ما أنا إلا فكرة عقولكم جميعها، ولا وجود لي إلا في أعمالك. ليس هناك شخص اسمه حاكم. المحكومون وحدهم هم الذين وجدوا ليحكموا أنفسهم.

وعاد الملك فدخل برجه مع تاجه وصولجانه ومضى الشبان والشيب كل في سبيله وهم في غبطةٍ وسرور.

وكان كل واحد يحسب نفسه أنه ملك يحمل تاجاً بيد، وصولجاناً بيد.

على الرمل

قال رجل لآخر: كتبت بطرف حذائي، عندما ارتفع مد البحر، سطراً على الرمل. ولا يزال الناس يتوقّفون عنده ليقرأوه، ويحرصون على أن لا يمحوه في المستقبل شيء.

وقال الرجل الآخر: وأنا كتبت أيضاً سطراً على الرمل، ولكن كان ذلك عندما انخفض المدّ، وجاءت أمواج البحر فمحته. ولكن قل لي: ماذا كتبت؟

أجاب الرجل الأول وقال: كتبت هذا: أنا من هو كائن وأنت ماذا كتبت؟

وقال الآخر: هذا ما كتبت: لست سوى قطرة من هذا الأوقيانوس الكبير.

الهدايا الثلاث

كان في مدينة بشرّي مرةً، أمير عطوف، محبوب ومقدّر من جميع رعاياه.

غير أنّه كان ثمة رجل فقير الحال، معدمٌ، جعل دأبه وديدنه ذمّ الأمير، والتشهير به، وتحريك لسانه أبداً ودائماً في التشنيع عليه.

وكان الأمير يعرف ذلك، ولكنه ظلّ صابراً لا يحرك في شأنه ساكناً.

وأخيراً خطر بباله أن يضع له حداً، وأرسل إليه في ليلةٍ من ليالي الشتاء خادمه، وحمّله كيس طحين، وعلبة صابون، وقالب سكر.

قرع الخادم باب الرجل وقال: أرسل إليك الأمير هذه الهدايا، علامة تذكار، ودليل رعاية

وشعر الرجل بالزهو، وأخذه العجب، إذ حسب أن الهدايا تكريم من الأمير له، وذهب في نشوة الكبرياء إلى المطران وأخبره بما فعل الأمير قائلاً: ألا ترى كيف أن الأمير يطلب رضاي؟

ولكن المطران قال: إيه! ما أحكم الأمير. وما أقلّ فطنتك! إنه

يتكلم بالرموز، الطّحين لمعدتك الفارغة. والصابون لقذارة سريرتك. والسكر ليحلو لسانك المر.

وأصبح الرجل خجلاً منذ ذلك اليوم، حتى من نفسه. واشتدت كراهيته للأمير كما لم تكن من قبل قطّ، وامتدّت هذه الكراهية للمطران الذي كشف له الأمير وأطلعه على مقاصده.

إلا أنه سكت بعد ذلك، ولم يتعرض للأمير بكلمة..

السلم والحرب

كان مرة ثلاثة كلاب في الشمس يتدفّأون ويتحدّثون. قال الكلب الأول بلهجة الحالم: إنه حقاً لعجَبٌ أن نعيش في هذا اليوم عيشة الكلاب. فكر في هذا اليسر الذي نسافر به تحت البحر، وفوق البر، وحتى في الجو. وتأمل الاختراعات التي أتت بالرفاهية للكلاب، وتمتعت بها عيوننا وآذاننا وأنوفنا.

وتكلم الكلب الثاني وقال: إنّنا أكثر عناية بالفنون. إنّنا ننبح القمر على نحو أكثر إيقاعاً مما كان يفعل أجدادنا، وعندما نحدّق إلى أنفسنا في الماء، نرى ملامحنا أنقى من ملامح الأمس وأوضح.

وتقدم الكلب الثالث وقال: غير أن الذي يشوقني أكثر من كلّ ما يشوق، ويخلب لبّي، إنما هو هذا التفاهم القائم بين ممالك الكلاب!

ونظر الكلاب الثلاثة إلى ما حولهم في تلك اللحظة، وإذا بمطارد الكلاب يقترب. يا للهول!.

ووثب الثلاثة، وضربوا على غير هدى في الشارع. وفيما كانوا يركضون، صاح الكلب الثالث فيهم قائلاً: اركضوا بالله، من أجل حياتكم. المدنيّة وراءنا تتعقّبنا.

الراقصة

جاءت مرةً راقصةٌ ترافقها جوقتها الموسيقية، إلى بلاط أمير بركاشا، فأحسنت الحاشية استقبالها، ورقصت أمام الأمير على موسيقى العود والشبابة والسنطور.

رقصت رقصة اللهب، ورقصة السيوف والرماح، ورقصة النجوم والفضاء. ثم رقصت أخيراً رقصة الأزهار في الرياح.

ووقفت بعد ذلك أمام العرش، وانحنت بجسمها للأمير، فأمرها هذا أن تقترب منه، وقال لها: أيتها المرأة الجميلة، يا ابنة النعيم والفرح، من أين أتيتِ بفنّك؟ وكيف أتيح لك أن تقودي عناصر الطبيعة وتصرّفيها على إيقاعاتك وقوافيك

انحنت الراقصة ثانية أمام الأمير، وأجابت: أنا لا أعرف، يا صاحب السمو والنعمة، جواب أسئلتك. كلّ ما أعرفه هو هذا: روح الفيلسوف تقيم في رأسه، وروح الشاعر في قلبه، وروح المغني تعيش في حنجرته، أما روح الراقصة فإنها تقطن في جسدها كلّه.

الملاكان الحارسان

التقى ذات مساء ملاكان عند بوابة المدينة، وتبادلا التحية، وراحا يتحدثان.

قال أحدهما: ماذا تعمل في هذه الأيام، وما هي المهمة التي أسندت إليك؟.

أجاب الآخر: أسندت إليّ حراسة إنسان سقط، وهو يعيش في الوادي، وكان خاطئاً كبيراً، هوى إلى أحط الدركات. واسمح لي أن أؤكد لك أنه واجب ضخم، خطير، أكابد منه عناء كبيراً.

قال الملاك الأول: تلك مهمة يسيرة، فكثيراً ما تعرفت إلى خاطئين وكنت حارساً لهم أكثر من مرة. وقد أسند إليّ أخيراً حراسة قدّيس طيب القلب والنفس يعيش في ظل خيمةٍ من أغصان الشجر، منقطعاً عن الناس، معتزلاً، بعيداً. وإني لأؤكّد لك أن ذلك عمل في منتهى الصعوبة والدقة

قال الملاك الثاني: ليس هذا سوى ادّعاء محض، إذ كيف يمكن أن تكون حراسة قديس أصعب من حراسة خاطئ؟.

أجابه الآخر: أيةُ قحةٍ هذه أن تحسبني مدّعياً! أنا لم أقرر سوى الحقيقة. ويبدو لي أنك أنت المدعي!.

وهنا أخذ الملاكان في شجار وعراك، بدأ بالكلام، وانتهى بالقبضات والأجنحة.

وفيما كانا يتعاركان مرّ بهما ملاك أعلى، فوقف وقال: لـِمَ تتنازعان؟ وما هو الأمر الذي جرّكما إلى هذا العراك كله؟ ألا تعلمان أن العراك بين الحرس من الملائكة أبعد ما يكون عن اللياقة، ولا سيما عند بوابة المدينة؟ أخبراني، ما هو الخلاف بينكما؟

وراح الملاكان يتكلمان معاً في آنٍ واحد ، وكل يدعي أن العمل الذي وُكِلَ إليه أصعب من عمل زميله، وأنّه هو الذي يستحقّ الإقرار الأكبر بفضله.

هزّ الملاك الأعلى رأسه وأمعن يتأمّل..

أخيراً قال: لا أستطيع يا صاحبي أن أقول لكما الآن أيكما أحق بالشرف الأكبر والمكافأة الأولى، ولكن ما دامت السلطة ممنوحة لي، فإني أعطي لكل منكما عمل الآخر، حفاظاً على السلامة وتأميناً للحراسة، وسيكون كل منكما مغتبطاً، وهو الذي يصرّ على أن واجب الآخر أيسر من واجب زميله. اذهبا الآن، وليسعد كل منكما بالعمل الذي أسند إليه.

ومضى الملاكان ينفّذان الأمر الذي وجّه إليهما، غير أنّ كل

واحد منهما راح ينظر وراءه إلى الملاك الأعلى، شزراً، ويقول في سره: آه من هؤلاء الملائكة الأعلين! إنهم يجعلون الحياة لنا نحن الملائكة، أعسر فأعسر، يوماً بعد يوم.

ولكن الملاك الأعلى وقف هناك، وراح يحدث نفسه، ويقول في سره: علينا، في الواقع، أن نكون حذرين، وأن نقيم حرساً على الملائكة الحارسين.

التمثال

كان ثمة رجل يعيش فوق الروابي، ولديه تمثال نحته أحد الأساتذة الأقدمين. وقد ألقي مطروحاً على الأرض أمام بابه، فلم يكن يعيره أدنى اهتمام.

ومر ذات يوم بمنزله رجل من المدينة، كان ذا بصر ومعرفة، ومذ شاهد التمثال، سأل عن صاحبه يريد شراءه.

ضحك صاحب التمثال وقال: أفأنت ترجو من يودّ أن يجد شارياً لهذا الحجر القذر الكاسد؟.

قال ابن المدينة: أعطيك هذه القطعة من الفضة لقاءه.

ودهش الرجل وفرح.

ونقل التمثال إلى المدينة على ظهر فيل. وذهب رجل الروابي إلى المدينة في زيارة، بعد عدة أشهر. وفيما هو يجوب شوارعها، وقع نظره على جمهور من الناس أمام دكان، وفيهم رجل يصرخ بصوتٍ عالٍ: تعالوا وادخلوا، فها هنا أجمل وأعجب تمثالٍ في العالم كله. يمكنكم بقطعتين فقط من الفضة أن تشاهدوا أبدع ما صنع أستاذٌ في فنّ النحت.

وعند ذاك، دفع رجل الروابي قطعتين من الفضة، ودخل الدكان ليشهد التمثال، فإذا هو ذاك الذي كان قد باعه بقطعة واحدة من الفضة!.

المبادلة

لقي شاعر فقير مرة غنيّاً غبيّاً عند ملتقى طرق، ودار بينهما حديث طويل. وكان كل ما قالاه ينم عن استياء وسخط، ولا شيء سوى سخطٍ واستياء.

ومر آنذاك ملاك الطريق، ووضع يده على كتف الرجلين، وإذا بمعجزة تتحقق: لقد انتقلت أملاك كل منهما للآخر.

ثم انصرفا. وكان أغرب ما جرى لهما أن الشاعر نظر فلم يجد في يده شيئاً سوى رملٍ جاف متحرك، والغني أغمض عينيه ولم يشعر بشيء سوى غيمة متحركة في قلبه!.

حب وبغض

قالت امرأة لرجل: أنا أحبك   وقال الرجل: إنما أكون أهلاً لحبّك هذا ، في قلبي.

وقالت المرأة: ألا تحبّني؟ وحدّق الرجل إليها مليّاً ولم يقل شيئاً.

عند ذاك صرخت المرأة بصوتٍ عال: أنا أكرهك.

وقال الرجل: إنما أكون إذن أهلاً لبغضك، في قلبي أيضاً.

أحلام

رأى رجل حلماً في نومه، وعندما أفاق ذهب إلى عرّافه، وطلب إليه أن يفسّر له رؤياه.

قال العراف للرجل: تعال إليّ مع الأحلام التي تراها في يقظتك. وسأخبرك عن معناها، أما الأحلام التي تراها في نومك فإنهما مما لا تناله معرفتي، ولا يدركه خيالي.

المجنون

كان ذلك في حديقة المارستان: لقيت شاباً شاحب الوجه، رائع الطلعة، يثير العجب.

وجلست بجانبه على المقعد وقالت: لمَ أنت هنا؟

نظر إليّ بدهشة وقال: ذاك سؤال غير لائق، ولكني أجيب عنه مع ذلك: أراد أبي أن يجعل منّي نسخة جديدة عنه، وكذلك أراد عمي. وشاءت والدتي أن أكون صورة عن أبيها الشهير، وأختي شاءت أن تجعل لي من زوجها البحّار المثل الأكمل الذي ينبغي لي أن أقتدي به. وأخي حسب أنّ عليّ أن أكون مثله، بطلاً رياضياً مرموقاً.

وكذلك هو شأن أساتذتي، من الدكتور في الفلسفة، إلى أستاذ الموسيقى، إلى المناطقة، قرّروا جميعهم وكل واحد منهم أرادني على أن أكون انعكاساً لوجهه في مرآة.

ولذلك، جئت إلى هذا المكان، وإني لأجده أردّ بالسلامة عليَّ والعافية. فأنا أستطيع به أن أكون إياي، لا غيري، على الأقل.

ثم دار فجأة نحوي، وقال: ولكن قل لي: هل ساقتك إلى هذا المكان أيضاً نصائح الآخرين ورغبتهم في تثقيفك؟.

أجبته: لا! أنا زائر.

قال: أنت إذن واحدٌ من أولئك الذين يعيشون في المارستان القائم وراء الجانب الآخر من الجدار.

الضفادع

قلت ضفدعة لرفيقتها، في يومٍ من أيام الصيف: أنا أخشى أن نزعج أولئك القوم الذين يقيمون في ذلك البيت، على الشاطئ، بأغانينا الليلية.

أجابت رفيقتها قائلة: حسن! ولكن ألا تجدين أنهم يعكرون صمتنا أثناء النهار بثرثرتهم؟.

قالت الضفدعة: يجب أن لا يغرب عن بالنا أننا نكثر الغناء، ونغلو في الإكثار منه، أثناء الليل! .

قالت رفيقتها: ويجب أن لا يغرب عن بالنا أنّهم يكثرون الضجيج والثرثرة، ويغالون في اللغط أثناء النهار.

قالت الضفدعة: ما القول في فحل الضفادع الذي يزعج الجيران كلهم بهديره المحرَّم؟.

أجابت رفيقتها: نعم! وما تقولين في السياسيّ والكاهن والعالم الذين يرتادون هذا الشاطئ ويملأون الهواء بضوضاء لا روي لها ولا إيقاعاً؟.

قالت الضفدعة: حسن! فلنكن أفضل من هذه الكائنات البشرية. لنهدأ في الليل. ولنحتفظ بأغانينا في قلوبنا، حتى وإن تاق القمر إلى أنغامنا، وتطلّعت النجوم إلى إيقاعنا. لنصمت ليلة أو ليلتين على الأقل، وحتى ثلاث ليالٍ متواليات.

قالت رفيقتها: حسن جداً! أنا موافق. وسنرى ما سينجم عن طيبة قلبك.

ومرت تلك الليلة، والضفادع صامتة. وصمتت أيضاً في الليلة التي تلت، ثم في الليلة الثالثة.

وكان أغرب ما جرى أن المرأة الثرثارة التي كانت تقيم في البيت القائم بجانب البحيرة، نزلت في اليوم الثالث تتناول فطورها، وصاحت لزوجها: مرت الليالي الثلاث الماضية لم أذق خلالها طعم النوم. لقد كنت أغفو على نقيق الضفادع، ولا بد من أن يكون هنالك شيء قد حدث، فإني لم أسمع لها صوتاً منذ ليالٍ ثلاث، ويكاد جنوني يُجنّ من الأرق.

سمعت الضفدعة هذا الكلام، ودارت نحو رفيقتها، وقالت وهي تغمز بطرف عينها: ونحن كلانا نجنّ من الصمت. ألم نكد نجن؟.

أجابت رفيقتها: أجل! كان صمت الليل ثقيلاً علينا. وقد أصبح في مستطاعي الآن أن أدرك أن لا حاجة بنا إلى الانقطاع عن الغناء، ترفيهاً عن أولئك الذين يملأون فراغ نفوسهم بالضجيج.

الشرائع والتشريع

كان في العصور السالفة ملكٌ كبير، وكان هذا الملك حكيماً. وقد رغب في سنّ الشرائع لرعاياه.

ودعا بألف حكيم اختارهم من ألف قبيلة، وطلب إليهم سنّ القوانين ليعمل بها في المملكة الكبيرة، المترامية الأطراف.

وعندما وضعت القوانين المكتوبة على الرق - وعددها ألف - أمام الملك وأخذ في قراءتها، بكى في سره بكاء مراً، إذ لم يكن يعرف أن في مملكته ألف شكل للجريمة.

ثم دعا بكاتبه، وراح يملي عليه بنفسه الشرائع، والابتسامة تعلو شفتيه، حتى إذا انتهى لم يتجاوز عدد القوانين التي وضعها السبعة.

وتركه الحكماء الألف وهم غاضبون وعادوا إلى قبائلهم ومعهم الشرائع التي سنوها، وراحت كل قبيلة تأخذ بالشريعة التي وضعها حكماؤها.

لذلك، كان لديهم ألف شريعة حتى يومنا هذا.

إنه بلد كبير، ولكن لديه ألف سجن، وهذه السجون ملأى برجالٍ ونساءٍ من الخارجين على الألف شريعة.

إنه في الحقيقة بلد كبير. ولكن أهله تحدروا من ألف مشترع وملك حكيم واحد.

أمس واليوم وغداً

قلت لصديقي: هل ترى إلى اتكائها على ذراع ذلك الرجل؟ لقد كانت حتى الأمس تتكئ على ذراعي.

قال صديقي: وغداً تتكئ على ذراعي.

قلت: انظر إلى جلوسها بجانبه! لقد كانت حتى الأمس تجلس هكذا بجانبي.

قلت: انظر! إنها تشرب الخمرة من كأسه، وأمس كانت تشربها من كأسي.

قال: غداً تشربها من كأسي.

قلت: انظر كيف تحدّق إليه بحنان، وعينين مستسلمتين. كانت حتى أمس تحدّق هكذا إليّ. قال صديقي: يمكن أن تحدق إليّ هكذا غداً.

قلت: ألا تسمعها الآن وهي تتمتم بترانيم الحبّ في أذنيه؟ هذه الترانيم ذاتها هي التي كانت تتمتمها حتى الأمس في أذني.

قال: وغداً ستهمس بها في أذني

قلت: انظر! إنها تعانقه. كانت إلى أمس فقط تعانقني

قال: غداً ستعانقني أيضاً

قلت عندئذٍ: يا لها من امرأةٍ غريبة!

ولكنه أجابني: إنها شبيهة بالحياة يتمتع بها كل الرجال، وشبيهة بالموت تقهر كل الرجال، وشبيهة بالأبدية تحتضن كل الرجال

الفيلسوف والإسكافي

جاء مرة فيلسوف بحذاء ممزق، إلى دكان إسكافي، وقال له: أرجو إصلاح حذائي

قال الإسكافي: أنا أصلح الآن حذاء رجل آخر، ولديّ أحذية أخرى، مضطرّ إلى ترقيعها، قبل أن يصل الدور لحذائك. غير أن في إمكانك أن تتركه هنا، وتلبس هذا الحذاء اليوم، وغداً تأتي وتلبس حذاءك بعد أن أكون قد أصلحته

اغتاظ الفيلسوف وقال: أنا لا ألبس حذاء ليس لي

قال الإسكافي: حسن إذن! أحقاً أنت فيلسوف ولا تستطيع أن تضع قدميك في حذاء رجل آخر؟ هناك في أول هذا الشارع نفسه إسكافي آخر، يفهم الفلاسفة أكثر مني، اذهب إليه للقيام بعملية الإصلاح

بناة الجسور

أقيم في إنطاكية، حيث يجري نهر العاصي ليصب في البحر، جسرٌ يصل نصف المدينة بنصفها الآخر، وقد بُني من حجارة عريضة نقلت من الروابي على ظهور بغال إنطاكية.

وعندما انتهى الجسر، نُقش على أحد أعمدته بالإغريقية والآرامية: بنى هذا الجسر الملك انطيوخوس الثاني

وكان الناس جميعهم يعبرون من ضفة إلى ضفة فوق الجسر الذي وصل ما انقطع بين نصفي المدينة.

وذات مساء نزل شاب يحسبه البعض مجنوناً إلى حدّ ما، واستمر ينزل حتى بلغ العمود الذي نقشت عليه تلك الكلمات، وغطاها بالفحم، وكتب فوقها: حجارة هذا الجسر جيء بها من الروابي على ظهور البغال. وأنتم إذ تمرون فوقه جيئة وذهاباً، إنما تركبون ظهور بغال إنطاكية بُناة هذا الجسر

وعندما قرأ الناس ما كتبه الشاب، ضحك بعضهم، وتعجب آخرون. وفيهم من قال: ها! نعم! إنّا لنعرف الذي فعل ذلك. أمَا هو ذلك المجنون الصغير؟

ولكن بغلاً قال، وهو يضحك، لبغل آخر: ألا تتذكر أننا حملنا تلك الأحجار؟ ومع ذلك، لا يزال هناك من يقول حتى الآن، إن الملك أنطيوخوس هو الذي بنى الجسر.

حقل زا آد

لقي مسافر على طريق زا آد، رجلاً كان يقيم في قرية مجاورة، فسأل المسافر الرجل، وهو يشير بيده إلى حقل واسع: ألم يكن هذا الحقل ساحة القتال الذي انتصر به الملك أهلام على أعدائه؟

أحاب الرجل قائلاً: هذا لم يكن قط ساحة قتال، وإنما كانت تقوم هناك مدينة زا آد الكبيرة، وقد أحرقت حتى تحولت إلى رماد. غير أنها أصبحت الآن حقلاً خصيباً. أما هي كذلك؟

وانصرف كل من الرجل والمسافر إلى شأنه.

وقبل أن يقطع المسافر نصف ميل بعد، لقي رجلاً آخر، وأشار بيده إلى الحقل مرة ثانية، وقال: أهذا هو المكان الذي كانت تقوم فيه مدينة زا آد الكبرى؟

قال الرجل: لم يكن ثمة مدينة في هذا المكان قط. وإنما كان هناك مرة دير، وقد دُمر على أيدي فئة من أهل القطر الجنوبي

وبعد قليل لقي المسافر، على طريق زا آد نفسها، رجلاً ثالثاً وأشار مرة أخرى إلى الحقل الفسيح وقال: أليس صحيحاً أن هذا هو المكان الذي كان يقوم فيه دير كبير من قبل؟

أجابه الرجل: لم يكن قط في هذا الجوار دير، ولكن آباءنا وأجدادنا أخبرونا أن شهاباً كبيراً وقع مرة فوق هذا الحقل

وتابع المسافر سيره، متعجباً في سره. ثم لقي، وهو يمشي، رجلاً عجوزا طاعناً في السن، فحياه، وقال له: لقيت أيها السيد، على هذه الطريق ثلاثة رجال يقيمون في هذا الجوار، قد سألت كل واحد منهم عن هذا الحقل، وكل واحد منهم نفى ما قاله الآخر، وروى لي حكاية جديدة لم يذكرها الآخر.

رفع الشيخ العجوز رأسه، وأجاب: كل واحدٍ من هؤلاء الرجال أخبرك في الحقيقة، يا صاحبي، عما كان، ولكن قلّة منا هم الذين يقدرون على إضافة واقع إلى واقع مختلف، ويؤلفون من ذلك حقيقة

الحزام الذهبي

تلاقى ذات يوم رجلان كانا يسيران على الطريق إلى سالاميس، مدينة الأعمدة، فترافقا، ووصلا عند منتصف الأصيل إلى نهرٍ عريضٍ، وليس من جسرٍ يربط بين ضفتيه، فكان عليهما أن يسبحا، أو يسلكا طريقاً آخر لا يعرفانه.

وقال واحدهما للآخر: فلنسبح! فالنهر ليس عريضاً لدرجة نتجشم بها مشقة السير على طريق نجهله وألقيا بنفسيهما للماء.

وما هي إلا فترة قصيرة حتى أخذ أحدهما يفقد فجأة توازنه، ويدفعه التيار بعيداً، وهو لا يملك من أمره شيئاً، وكان من قبل يعرف الأنهار ومسالكها، بينما الآخر الذي لم يسبح قط من قبل، قطع النهر على خط مستقيم، ووقف على الضفة المقابلة. ومذ بصر برفيقه يصارع التيار، قذف بنفسه ثانية في الماء وجره سالماً إلى الشطّ.

وقال الرجل الذي جرفه التيار: أخبرتني أنّك لا تحسن السباحة، فكيف إذن قطعت النهر بمثل هذه الثقة؟

أجاب الرجل: أترى يا صديقي إلى هذا الحزام الذهبي الذي

يطوقني؟ إنه مليء بالنقود الذهبية التي حصلت عليها خلال عامٍ كامل من العمل، في سبيل زوجتي وأولادي. إنها قيمة هذا الحزام الذهبي التي حملتني عبر النهر، إلى زوجتي وأولادي، وهؤلاء كانوا فوق كتفي وأنا أسبح.

وتابع الرجلان سيرهما معاً نحو سالاميس.

التراب الأحمر

قالت شجرة لرجل: إن جذوري توغل عمقاً في التراب الأحمر، وسأعطيك من ثمري.

وقال الرجل للشجرة: ما أشبه الواحد منا بالآخر. إن جذوري عميقة أيضاً في التراب الأحمر. والتراب الأحمر يمنحك القوة لتهبيني من ثمرك، وهو الذي يعلمني أن أتقبّل منك مع الامتنان.

البدر الكامل

طلع البدر كاملاً، مجيداً، على المدينة، وراحت كلاب تلك المدينة جميعها، تنبح القمر.

إلا أن هنالك كلباً واحداً لم ينبح، قال لرفاقه بصوت صارم: لن توقظوا الموات من سباته، ولن تنزلوا القمر إلى الأرض بالنباح

وانقطع حينئذ جميع الكلاب عن النباح، وساد صمت راعب. ولكنّ الكلب الذي كلّم الجمع، استمر في نباحه من أجل الصمت، طوال الليل بأكمله.

النبي الناسك

كان هناك مرة نبي منقطع للعبادة والنسك، ولم يكن يترك صومعته سوى ثلاث مرات في الشهر، يذهب خلالها إلى المدينة، يعظ الناس في الأسواق ويدعوهم إلى بذل العون والمشاركة في حمل الأعباء، وكان فصيحاً، بليغاً، قادراً على الإقناع، حتى طار صيته في طول البلاد وعرضها.

وذات يوم قدم إلى صومعته ثلاثة رجال، حياهم وأكرم وفادتهم ثم قالوا له: وعظت الناس بالبذل والمشاركة، وكنت تبغي تعليم أولئك الذين لديهم الكثير، أن يقدموا لمن ليس لديهم سوى القليل، ونحن لا يخامرنا شك في أن شهرتك عادت عليك بأموالٍ طائلة. فالآن، تعال وقدم لنا من أموالك، فإنا في حاجة وفاقه.

أجاب الناسك وقال: ليس لدي أيها الأصدقاء شيء سوى هذا الفراش وهذا اللحاف وهذا الإبريق، خذوها إذا كنتم ترغبون فيها. أنا لا أملك فضة ولا ذهباً.

عند ذاك نظروا إليه بازدراء، وأداروا وجوههم عنه، ووقف آخرهم عند الباب لحظة وقال: أوه! أنت تغش! أنت تخادع! إنك لتعلم وتعظ أشياء لم تبدأ بتحقيقها في نفسك! .

الخمرة العتيقة، العتيقة

كان غنيّ مرّة كثير الافتخار بقبوه والخمر المعتّقة فيه، وكان ثمة إبريق احتفظ به لمناسبة لا يعرفها أحدٌ غيره.

وزاره حاكم الدولة، فأبدى له امتنانه على زيارته وقال له: لن يفرغ هذا الإبريق من أجل حاكم تفضل بزيارة. .

وزاره مطران الأبرشية فقال لنفسه: لا! لن يفرغ هذا الإبريق، فهو لن يعرف قيمته، ولن يبلغ أريجه أنفه .

وجاء أمير المملكة وتناول عشاءه معه، فقال الغني في سره: إنهما خمرة ملكية، فلا يصح إهراقها من أجل أمير!.

وقال لنفسه أيضاً، حتى عندما تزوج ابن أخيه: لا! ليس لمثل هؤلاء الضيوف يفرغ مثل ذلك الإبريق

ومرت الأعوام تتلوها الأعوام، ومات عجوزاً، متهافتاً، ودفن في التراب كأيّ بذرة أو بلّوطة.

وفي اليوم الذي دفن به، جيء بالإبريق الذي لم يسخُ به لأحد، مع غيره من أباريق الخمر، وتقاسمه فلاحو الجوار، وما من أحدٍ عرف عمره الكبير.

كان في نظر الذين شربوه خمراً كغيرها من الخمور.

القصيدتان

تلاقى على طريق أثينا ، قبل قرون متطاولة ، شاعران، وكان كل واحدٍ منهما مسروراً بلقاء الآخر.

سأل أحدهما الثاني قائلاً: ماذا نظمت أخيراً ، وكيف هي قريحتك في هذه الأيام؟.

أجاب الثاني بزهو قائلاً: لقد انتهيت إلى لحظاتٍ خلت من نظم أروع قصيدة قيلت حتى الآن بالإغريقية. إنها مناجاة لزوس الأعلى! .

ثم تناول من باطن جلبابه رقاً ، وقال: ها هي هنا. إنها معي. وإنه ليسرني أن أتلوها عليك. تعال ولنجلس في ظل هاتيك السروة البيضاء

وراح الشاعر يتلو قصيدته ، وكانت طويلة.

وقال له الشاعر الآخر برقة ولطف: إنها قصيدة طويلة. ستظل حية مدى العصور ، وستمجدك عليها الأجيال

قال الأول بهدوء: وماذا نظمت أنت آخر ما نظمت؟

أجاب الثاني: لم أنظم سوى القليل. نظمت ثمانية أبيات فقط تذكاراً لصبي كان يلعب في الحديقة وتلا الأبيات.

قال الشاعر الأول: ليس رديئاً لدرجة كبيرة. ليس رديئاً لدرجة كبيرة

ومضيا.

واليوم بعد ألفي سنة، لا تزال الأبيات الثمانية التي نظمها الشاعر الثاني تدور على كل لسان، ويرددها الناس بإعجاب وإعزاز.

أما القصيدة الطويلة، فإنها وإن تناقلتها الأجيال من بعد في المكتبات، وحجرات الباحثين والدارسين، وكان الناس يذكرونها، لا تلقى من يحبها، ولا من يتلوها.

الليدي روث

وقف مرة ثلاثة رجالٍ يتأملون من بعيد بيتاً أبيض اللون يقوم وحده فوق رابية خضراء، فقال أحدهم: ذلك هو بيت الليدي روث. إنها ساحرة عجوز

وقال الثاني: أنت مخطىء. الليدي روث امرأة جميلة تعيش منقطة هناك إلى أحلامها.

وقال الثالث: كلاكما على خطأ. الليدي روث صاحبة هذه الأرض الفسيحة، وهي تمتص دم العبيد الذين يعملون فيها.

ومضوا يتجادلون حول الليدي روث.

وحين بلغوا مفترق طرق لقوا رجلاً طاعناً في السن، فسأله أحدهم قائلاً: هل لك أن تخبرنا ما شأن الليدي روث التي تقيم في ذلك البيت الأبيض، فوق الرابية؟.

رفع الشيخ رأسه، وابتسم ساخراً منهم، وقال: أنا في التسعين من سني، وإني لأتذكر الليدي روث مذ كنت صبياً صغيراً. غير أن الليدي روث ماتت منذ ثمانين عاماً، والبيت الآن خاوٍ تنعب فيه البوم، والناس يقولون أحياناً: إنه مسكون.

الفأرة والهر

لقي شاعر ذات مساءٍ فلاحاً. وكان الشاعر جافياً، والفلاح خجولاً، ومع ذلك دار بينهما الحديث.

قال الفلاح: دعني أقص عليك قصة قصيرة سمعتها أخيراً. وقعت فأرة في فخ، وفيما كانت تأكل جبنة الفخ سعيدة بالعثور عليها، وقف بجانبها هر. ارتجفت الفأرة لأول وهلة، ولكنها كانت تعلم أنها في أمانٍ داخل الفخ.

ثم قال الهر: لقد أكلت آخر وجبة يا صديقتي.

أجابت الفأرة: إن لي حياة واحدة وإذن سأموت ميتة واحدة. ولكن ما شأنك أنت؟ لقد خبرتُ أن لك تسع حيوات. ألا يعني ذلك أنه سيكون عليك أن تموت تسع ميتات؟.

ونظر الفلاح إلى الشاعر وقال: أليست هذه قصة غريبة.

لم يجبه الشاعر ولكنه مشى بعيداً عنه قائلاً في سره: إن لنا على وجه التأكيد تسع حيوات، تسع حيواتٍ على وجه التأكيد. وعلينا أن نموت تسع مرات. تسع مرات علينا أن نموت. ربما كان من الأفضل أن لا يكون لنا سوى حياة واحدة، أطبق عليها فخ، حياة فلاح مع قطعة جبن لآخر وجبة. ألسنا مع ذلك أنسباء السباع في الصحارى والأدغال! .

اللعنة

قال لي مرة بحّار عجوز: لقد مضى على ذلك البحار الذي خطف ابنتي وهرب بها ثلاثون عاماً. ورحت ألعنهما في قلبي، إذ كنت لا أحب في هذا العالم أحداً، سوى ابنتي.

ولم يكد يمضي زمن غير طويل على ذلك، حتى غاص البحّار بمركبه إلى قاع البحر، وخسرته، وخسرت معه ابنتي الحبيبة.

والآن انظر فيّ إلى قاتل شاب وفتاة. إنّها لعنتي التي قضت عليهما. وإنّي لأرجو مغفرة الله وأنا في الطريق الآن إلى القبر.

هذا ما قاله العجوز. ولكن لهجته كانت تنم عن زهو وافتخار، ويبدو أنه فخور بقوة لعنته.

الرمانات

كان لرجل مرةً عدد وافر من أشجار الرمان في بستانه. وكان في أكثر من خريف يضع رمانه على أطباق فضية خارج مسكنه، ويضع على الأطباق علامات يكتبها بيده: خذ واحدة لقاء لا شيء. أهلاً بك.

غير أن الناس كانوا يمرون بالأطباق، وما من أحدٍ يأخذ شيئاً من الثمار.

عند ذاك فكّر الرجل في نفسه، حتى إذا أقبل الخريف التالي لم يضع رماناً على أطباق فضية خارج منزله، ولكنه أبرز العلامة الآتية وكتبها بحروف كبيرة: لدينا هنا أفضل رمان تنتجه الأرض، ولكننا نبيعه بثمن أغلى من أثمان سائر الرمان.

وتدفق الناس عليه بعد ذلك من رجال الجيرة ونسائها يشترون.

الله والآلهة العديدة

جلس سفسطائي في مدينة كيلافيس، على درج المعبد، وراح يدعو الناس إلى الآلهة العديدة، والناس يقولون في قلوبهم: إنا لنعرف كل ذلك. ألا تعيش هذه الآلهة معنا وتتبعنا أينما ذهبنا؟.

ولم يمض على ذلك زمن طويل، حتى وقف رجل آخر في ساحة المدينة يخطب الناس ويقول لهم: ليس هناك إله. وقد فرح كثيرٌ ممن سمعوه بهذه البشائر، إذ كانوا في جزعٍ من الآلهة.

وذات يوم أقبل رجل قوي العارضة، بليغ الحجّة، وقال: ليس هناك سوى إله واحد وجزع الناس في قلوبهم، وخافوا حكم إله واحد، أكثر مما كانوا يخشون حكم آلهةٍ عديدة.

وجاء في الموسم نفسه رجلٌ آخر وقال للناس: هنالك ثلاثة آلهة تقيم فوق الريح كأنها واحد، ولهم أم حانية، واسعة الصدر، تقوم مقام رفيقة لهم وأخت في آنٍ واحد.

عند ذاك سُرّيَ عن الجميع، إذ قالوا في سرهم: ثلاثة آلهةٍ في واحد، يقتضي أن يختلفوا على عيوبنا، وإلى ذلك، فإن أمهم ذات القلب الحنون، لابد أن تقف بجانبنا وتدافع عن نقاط ضعفنا.

ولا يـزال حتـى اليـوم فـي مدينـة كيلافيـس تلـك، أولئـك الذيـن يتجـادلون ويتنـازعون حـول الآلهـة العديـدة، وليـس هنـاك إلـه، والإلـه الواحد، والآلهة الثلاثة في واحد، وأم حنون للآلهة.

تلك التي كانت صماء

كان مرّة لرجل غني زوجة شابّة، ولكنها كانت صماء صمم الحجر.

وذات صباح، بينما كان الغني وزوجه يتناولان فطورهما، بدأت هذه الكلام وقالت: زرت السوق أمس، ورأيت فيما رأيت من معروضاته، رداءً حريرياً صنع دمشق، وأبراداً هندية، وعقوداً فارسية، وأساور يمانية، وبدا أن القوافل اقتصرت على هذه الأشياء في كل ما جلبت إلى المدينة. والآن انظر إليّ، وأنا بهذه الأطمار البالية، أنا زوجة الثري المعروف. أريد منك بعض هذه الأشياء الجميلة.

قال الزوج، وهو ما يزال يحتسي قهوة الصباح: عزيزتي! ليس هناك ما يبرر عدم نزولك إلى السوق وابتياع كل ما يشوقك، ويرتاح إلى نيله فؤادكِ.

وكان من الزوجة الصماء أن قالت: لا! أبداً تقول: لا! لا! هل قدر علي أن أظهر في الأسمال بين أصدقائنا وصديقاتنا ليخجل بي أهلي، ويُخجل الناس ثراءك؟

قال الزوج: لم أقل: لا يمكنك أن تذهبي إلى السوق، وتبتاعي أجمل الحلي والزينات التي وردت إلى هذه المدينة

وأساءت الزوجة فهم كلام زوجها للمرة الثانية، وأجابت: أنت أشح الأغنياء جميعهم. إنك لتأبى عليّ كلّ ما هو جمال وأناقة، بينما يطوف نساء جيلي حدائق المدينة رافلاتٍ في أبدع الحلل القشيبة وأغلاها. واستخرطت في البكاء. وفيما كانت دموعها تتهاوى على نحرها، صاحت للمرة الثانية: دوماً تقول: لا! لا! كلما رغبت في حلية أو رداء. وهنا اضطرب الزوج ووقف، وتناول من خزينته حفنة من النقود الذهبية، ووضعها أمامها، قائلاً بصوت رقيق ناعم: اذهبي إلى السوق يا عزيزتي واشتري كل ما تريدين.

ومنذ ذلك اليوم، أخذت الزوجة الشابة الصماء تظهر أمام زوجها بدرة من الدمع في عينيها كلما رغبت في الحصول على شيء، وهو يتناول من جانبه صامتاً، حفنة من الذهب، ويلقي بها في حضنها.

ثم حدث أن وقعت المرأة الشابة في هوى شاب من عادته أن يقوم برحلات طويلة، وكلما سافر في رحلة، جلست في مخدعها تبكي. وكان زوجها عندما يجدها على تلك الحال من البكاء، يقول في سره: لابد من أن تكون ثمة قافلة جديدة قد وصلت، وبعض الحلي والحلل النادرة قد عُرضت في السوق.

وعند ذاك يتناول حفنة من الذهب، ويلقي بها إليها..

المسألة

تلاقى فيلسوفان، قبل نحو من ألف سنة، فوق منحدر من لبنان، فقال أحدهما للآخر: إلى أين أنت ذاهب؟.

أجاب الآخر: أنا أبحث عن عين الصبا التي أعرف أنها تنبع وسط هذه الروابي. وقد عثرت على كتابات تنبىء أن تلك العين تتألق تألق الزهرة مع الشمس. وأنت عمَّ تبحث؟.

أجاب الأول: أنا أبحث عن سر الموت.

وأدرك حينذاك كل من الفيلسوفين أن الآخر ينقصه الشيء ا لكثير من العلم، على سعة معرفته، وراحا يتنازعان، ويتهم كلّ منهما الآخر بالعماوة الروحية.

وفيما كان الفيلسوفان يصخبان صخب الريح، مر بهما غريبٌ كان يحسبه أهل قريته ساذجاً، مسكيناً لا يدرك شيئاً، ومذ سمع الجدال الصاخب الذي يرتفع من جانب الرجلين، وقف برهة يصغي إلى حجة كل منهما.

ثم اقترب منهما وقال: يبدو أنكما، يا صاحبيّ، تنتميان معاً

إلـى مدرسـة فلسـفية واحـدة، فأنتمـا تتحدثـان عـن شـيء واحـد، ولكـن بكلمات مختلفة. إن أحدكما يبحث عن عين الصبا، والآخر يبحث عن سـر المـوت، وهمـا فـي الحقيقة شـيء واحـد، وهـذا الشـيء نفسـه يقيـم فيكما معاً

وابتعـد الغريـب عنـهما، وهـو يقـول: وداعـاً أيـها الحكيمـان! وفيما كان يدير ظهره منصرفاً، سُمِعَ وهو يضحك ضحكة هادئة.

ونظـر الفيلسـوفان كـل منـهما للآخـر فـي صمـت لحظـة، ثـم ضحكـا أيضـاً، وقـال أحدهمـا لزميلـه: حسـن! ألا يحسـن بنـا الآن أن نمشي ونبحث معاً؟

الصولجان

قال ملكٌ لزوجه: لستِ يا سيدتي ملكة حقّا! أنتِ جدّ عادية ومبتذلة ، وغير لائقة لأن تكوني رفيقة حياتي! .

قالت الزوجة: أنت تحسب نفسك ملكاً ، وما أنت في الحقيقة سوى رجع صدى مسكين لمن قبلك! .

وأغاظت هذه الكلمات الملك، فتناول صولجانه بيده، وضرب الملكة على جبينها بالقبضة الذهبية منه.

ودخل رئيس الخدم في تلك اللحظة وصاح. ماذا؟ ماذا يا صاحب الجلالة؟ هذا الصولجان صنعه أكبر فنان في البلاد. واحسرتاه! سوف يأتي يوم تُنسى به أنت والملكة ، وهذا الصولجان يُحفظ كرائعة فنية ، من جيلٍ لجيلٍ.

والآن وقد أسلت الدم به من رأس صاحبة الجلالة ، فإنه سيصبح أوفر اعتباراً وأكثر تذكراً.

الطريق

كانت امرأة تعيش في أعالي الرُّبى مع ابنها، وكان بكرها ووحيدها، الذي تنفق عليه كل ما في قلبها وحياتها من عطف وحنان.

ومات الولد بحمى فاجأته، والطبيب واقف بجانبه.

وسحق الأسى قلب الأم، وراحت تصرخ وتولول، وتخاطب الطبيب قائلة: قل لي! قل لي! ما الذي أسكن حركته، وأسكت غناءه؟.

قال الطبيب: إنها الحمى.

قالت الأم: وما هي هذه الحمى؟.

أجاب الطبيب: لا أستطيع شرحها. إنها شيء متناهٍ في الصغر، يزور الجسم، ولا نقدر على رؤيته بالعين المجردة.

ثم تركها الطبيب، وراحت تكرر ما قال، لنفسها: شيء متناهٍ في الصغر، لا نقدر على رؤيته بالعين المجردة.

وجاء الكاهن في المساء يعزيها، فراحت تبكي بين يديه وتُعْوِلُ قائلة: لماذا فقدت ولدي، ولدي الوحيد، ولدي البكر؟.

أجاب الكاهن: إنها يا ابنتي مشيئة الله.

قالت المرأة: ما هو الله وأين هو الله؟ أريد أن أشاهده لأمزق صدري أمامه، وأنزف دم قلبي على قدميه، قل لي أين أستطيع أن أجده؟.

قال الكاهن: الله رحبٌ لا نهاية لرحابته. ولا سبيل إلى رؤيته بالعين البشرية المجردة.

صرخت المرأة عند ذاك: إن الشيء الذي لا نهاية لصغره أهلك ولدي من خلال مشيئة الذي لا نهاية لكبره! ونحن؟ ما نحن إذن؟ ما نحن؟.

وأقبلت أم المرأة في تلك اللحظة وولجت الغرفة ومعها كفن الصبي وكانت قد سمعت كلمات الكاهن، وصراخ ابنتها، ورمت بالكفن إلى الأرض، وأخذت يد ابنتها بيدها، وقالت: نحن يا ابنتي الشيء الذي لا نهاية لصغره، ولا نهاية لكبره، معاً. نحن الطريق بين الاثنين.

الحوت والفراشة

وجد رجل وامرأة نفسيهما ذات مساء، معاً في عربة مسافرين، وكانا قد التقيا من قبل..

كان الرجل شاعراً، وفيما هو جالس بجانب المرأة، قصد إلى تسليتها بقصص ابتدع بعضها، وسمع بعضها الآخر.

ولكن المرأة غفت بينما كان يسرد عليها قصصه. وعثرت العربة فجأة وأفاقت المرأة، وقالت: أنا معجبة بتفسيرك لقصة يونس والحوت

قال الشاعر: غير أني كنت أقص عليك يا سيدتي قصة أنا وضعتها، حول فراشة ووردة بيضاء، فكيف انتقلت واحدتهما إلى الأخرى! .

السلم يعدي

قال غصن مزهر لجاره: هذا يوم تافه، أجوف.

فأجابه الغصن الآخر: إنه في الحقيقة أجوف، تافه.

وتعلق في تلك اللحظة عصفور على أحد الغصنين، وجاء عصفور آخر وقف بجانبه.

وترنم أحد العصفورين وقال: هجرتني رفيقتي.

وصاح العصفور الآخر: ورفيقتي أيضاً ذهبت ولن تعود. فأي شيء يهمني من ذلك؟

وراح العصفوران يتلاحيان ويتوجه كل منهما بالتوبيخ إلى الآخر، ثم ما لبثا أن تنازعا، وأثارا ضجة كبيرة في الجو.

وانفض فجأة من السماء عصفوران آخران، وارتميا بهدوء إلى جانب زميليهما المتشاجرين. وساد الهدوء والسلم.

ثم طار الأربعة معاً زوجين، زوجين!.

وقال الغصن الأول لجاره: أحدث قدوم العصافير ضوضاء

كبيرة. وأجابه الغصن الآخر: سمٌّ ذلك ما شئت، الآن سلم وهدوء. وإذا كانت الطبقة العليا من الجو في سلام، فإنه يبدو لي أن أولئك الذين يقيمون في الطبقة الدنيا، يحيون في سلام أيضاً. أتريد أن تتمايل في الريح أكثر مما تفعل، كي تظل بعيداً عني؟.

قال الغصن الآخر: إيه! ربما أفعل ما تشاء من أجل السلم، لحظة وينتهي الربيع.

ثم مال مع الريح بقوّة ليعانقها..

الظل

قال العشب في يوم من أيام حزيران، لظلّ دوحة كبيرة:

أنت لا تني تنتقل يمنة ويسرة أغلب الأحيان. إنك لتزعجني عما أنا فيه من هدوء وراحة بال.

أجاب الظل قائلاً: لست أنا الذي ينتقل! انظر إلى السماء، إلى الأعالي. هنالك شجرة تنقلب في الريح شرقاً وغرباً، بين الشمس والأرض.

وتطلع العشب إلى العلاء، وشاهد الدوحة لأول مرة، وقال في سره: ها إن هنالك عشباً أكبر مني بكثير! .

وران عليه الصمت..

سبعون

قال الشاعر الشاب للأميرة: أنا أحبك أجابت الأميرة: وأنا أيضاً أحبك يا ولدي! .

رد الشاب: ولكني لست بولدك. أنا رجل وإني لأحبك

قالت: أنا أمّ البنين والبنات، وهؤلاء هم آباء وأمهات للبنين من بعدهم والبنات. وإن أحد أولاد أولادي أكبر منك سناً

وقال الشاعر الشاب: ولكني أحبك

ولم يمضِ على هذا الحوار زمن طويل حتى ماتت الأميرة، ولكنها في اللحظة التي تلقت بها الأرض آخر أنفاسها، قالت في سرها: يا حبيبي! يا ولدي الحبيب! يا شاعري الشاب. ربما كان لنا أن نلتقي بعدُ مرة ثانية. ولكني لن أكون عندئذٍ في السبعين

العثور على الله

كان رجلان يمشيان مرة في الوادي، وأشار أحدهما بإصبعه ناحية الجبل، وقال: هل ترى تلك الصومعة؟ هناك يقيم رجل طلق الدنيا منذ زمن طويل. إنه لا يبحث عن شيء، ولا يريد شيئاً سوى الله، على أديم هذه الأرض.

قال الرجل الآخر: إنه لن يجد الله حتى يهجر صومعته، وعزلته، ونسكه، ويعود إلى العالم، يشاركنا في أفراحنا وأتراحنا، ويرقص مع الراقصين في ولائم الأعراس، ويبكي مع الباكين حول أجداث الموتى.

واقتنع الرجل في سريرته بصحة هذا الكلام، ولكنه أجاب، على الرغم من اقتناعه: أنا أوافق على كل ما تقول، غير أني أعتقد أن الناسك إنسان طيب. ألا يمكن أن يكون من الأفضل أن يعتزل إنسان طيب فيخدم بعزلته أكثر مما يفعل هؤلاء الرجال بطيبتهم الظاهرة؟.

النهر

التقى جدولان صغيران في وادي قاديشا حيث يتدفق النهر العظيم، وراح كل منهما يتحدث إلى الآخر.

قال أحد الجدولين: كيف أتيت يا صديقي، وكيف كانت طريقك؟.

أجاب الآخر: كانت طريقي أكثر الطرق عراقيل ووعورة، فقد كسر دولاب المطحنة، والمزارع الذي اعتاد قيادتي من القناة إلى زروعه، قضى نحبه. وكان علي أن أكافح، وأتسرب مع قذارة أولئك الذين لا يعملون شيئاً، إلا أن يخبزوا كسلهم في الشمس. ولكن، قل لي كيف كانت طريقك أيها الصديق؟.

أجاب الجدول الآخر، وقال: كانت طريقي تختلف عن طريقك: لقد نزلت من أعالي الرُّبى، وسط الأزهار العاطرة الناضرة، وأشجار الصفصاف المتهدلة. وكان الرجال والنساء يرشفون مني بأكواب فضية، والأطفال الصغار يغمسون على حفافيّ أقدامهم الوردية في مياهي، وكانت ضحكات البشر والإيناس ترتفع موسيقية في الفضاء

من حولي، وكانت هناك أغانٍ عذبة تملأ الجو فرحاً وألقاً. يا لها من مأساةٍ أن لا تكون طريقك هكذا سعيدة! .

وفي تلك اللحظة، تكلم النهر بصوتٍ عالٍ وقال: تعال! تعال! إنّنا ذاهبون إلى البحر. تعال، تعال، ولا تقل بعد شيئاً. كن الآن معي. نحن ذاهبون إلى البحر. تعال إليّ. تعال إليّ. فإنّك تنسى إذ تلجني كل جولاتك التائهة، حزينة كانت أم سارة. تعال وادخل. ادخل. فأنا وأنت سننسى جميع طرقنا عندما نبلغ قلب أبينا البحر.

الصيادان

التقى السرور والحزن، في يوم من أيام نوار، بجانب إحدى البحيرات، فتبادلا التحية، وجلسا على مقربة من المياه المطمئنة، يتطارحان الأحاديث.

تحدث السرور عن الجمال الذي يغمر الأرض، وعن الروعة اليومية التي تفعم الحياة في الغابة، وبين الهضاب، والأغاني التي تُسمع في الفجر والأصيل.

وتكلم الحزن، ووافق على كل ما قاله السرور، لأن الحزن كان يدرك سحر الساعة والجمال المنبعث فيها. والحزن بليغ حين يخوض في حديث نوار وسط الحقول وفوق الهضاب.

وتحدث الحزن والسرور طويلاً، وكان الوفاق بينهما تاما حول جميع الأشياء التي يعرفانها.

ثم مر بهما صيادان على الضفة الأخرى من البحيرة. وفيما هما ينظران إليهما عبر الماء، قال أحدهما: إني لأعجب من عسى هذان الشخصان أن يكونا؟ وقال الآخر: قلت: اثنان؟ أنا لا أرى إلا واحداً.

قال الصياد الأول: ولكن هناك اثنان   ورد الثاني قائلاً: ليس هناك إلا شخص واحد أستطيع أن أتبينه، وانعكاس صورته في البحيرة واحد أيضاً.

قال الصياد الأول: لا! هناك اثنان، وانعكاس الصورة في الماء الهادئ، إنما هو لشخصين أيضاً.

ولكن الرجل الثاني قال ثانية: أرى واحداً بمفرده   وقال الآخر للمرة الثانية أيضاً: ولكني أرى اثنين بوضوح.

ولا يزال أحد الصيادين يقول حتى اليوم إن الآخر رأى شخصاً مضاعفاً، بينما الآخر يقول: صديقي أعمى على نحوٍ ما.

التائه الآخر

لقيت ذات مرة رجلاً آخر يتسكع على الطرق. وكان أيضاً على بعض الجنون. فراح يكلمني هكذا: أنا تائه ويبدو أغلب الأحيان أني أجوب الأرض مع الأفاقين. ومذ كان رأسي أبعد بسبعين ذراعاً عن الأرض من رؤوسهم، فإنه يبدع أفكاراً أسمى وأكثر انطلاقاً من أفكارهم.

غير أني في الحقيقة لا أسير مع الناس، بل فوقهم، وكل ما يستطيعون أن يروه مني، إنما هو آثار أقدامي في حقولهم المنفتحة.

وكثيراً ما سمعتهم يتجادلون ويتعارضون حول شكل هاتيك الآثار لأقدامي وحجمها، إذ كان هنالك من يقول: إنها آثار تنين طاف الأرض في الماضي السحيق، وآخرون قالوا: لا! هذه هي الأماكن التي هبطت عليها النيازك من أفلاك الكواكب القصية.

ولكن أنت يا صديقي، تعرف أتم المعرفة أن هذه ليست سوى آثار أقدام لتائه .

فهرس